غبار المدينة

محمد فتيلينة

رواية



رواية

تأليف

محمد فتيلينة

طبعة ٢٠١٦

فتيلينة، محمد

غبار المدينة -رواية/ محمد فتيلينة – ط ١.- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٥ .

١٣٢ ص،٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٤٠٤٤

١-القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣



رواية

تأليف

محمد فتيلينة

أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة والنشر

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٥/٢٥٦٣١

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٤٠٤-٤

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠١٦

الكتاب : غبار المدينة

المؤلف : محمد فتيلينة

الغلاف : ريم السخاوى

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

atlas@innovations-co.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

الإهداء

إلى والدتي الحبيبة، صاحبة الفضل في كل نص أكتبه.

المشهد الأخير

بقيت لها منتظرًا وسط الحي، وأمسيت لأول مرة لا ألقي للمارّين بالاً، ولا أحسب لنظراتهم حسابًا، إنه الشوق، مشتاقٌ أنا إلى الحياة، إلى صاحبة أسطر الدّعة والسكون.

لا أزال واقفًا في قلب هذا الحي الذي غاب عنه اليوم الغبار تمامًا، كأن ملامح الحي والمدينة تغيرت، لقد غيرت رسائلها كل شيء حتى الحي، نسيت مع الوقوف كل الـ أشجان والأحزان، ومع كل ثانية تمضي من الانتظار إلى طيفها، يزداد خفقان القلب وتسري إلى كياني أكاسير الحياة ومتعتها، لقد طال انتظاري، أربعون عامًا.

لم أحفل بالغلاف الذي تعلوه بوقار نسائمٍ ساحرة من مسكٍ فرنسي تهادى بحياء وغنج إلى قلبي المختزن لذكرياتٍ تسارع فيه الأمل والألم، ورحت أسابق عيني إلى كل حرف من تلك الدّرة وكأن بمدادها شريانٌ دفّاق من مودة وألفة... بدأت بقراءة أول سطر:

((قبلت بك زوجًا،

بماضيك بحاضرك،

بأحلامك بكوابيسك)).

هذه الجمل الثلاث التي ملأتها "فرح" بحبر من وقار وكبرياء وإباء كإباء الملكات، هي ما اختصرت الأشواق والمسافات.

دنت، نعم، دنت من الحي، كالفاتحين على أبواب إشبيلية أو أولئك الحاملين لعمائم التوق والنبل وهم على تخوم القسطنطينية.

بعد انتظار لاح جسمها البهي في الأفق، وهي في وهج الحياة تتوشح على خطى البداوة حايكًا على عكس كل مجايليها في الحي والمدينة ممن يرتدين الجلابيات والحجابات، مع كل خطوة تسابق بها بجاذبية البداوة الهواء المار على جانبيها، تؤنس القلب والعقل، بل تكاد تخطف أنفاسي.

مع وقوفي المليء بالدهشة -وفي خضم بريقها- نسيت وجهًا وقورًا تتأبطه يداها، إنها تستند على كتف سي قدّور.

صمت كل شيء، وحال الحياء بيني وبين كلمة "أحبك".

سأفر من المكان تاركًا لها ولوالدها المسير الذي سيرسم من الآن أولى خطوات حياتي معها، سوف أعود، أخيرًا، ليس إلى سؤالي المجهول بل نحو أملٍ على خطى فتاتي ووالدها، سأقترب من سقف نصف ديني.

ستقضي أربعون خريفًا، وهي لا تزال بكرًا في أحلامي وأحلامها بقلب يحوي ثلاثين ربيعًا، هي عمرها.

المشهد الأول

تعودتُ على مجالستهم، على الاقتراب من وجوههم المكسوة سنينًا، كل مساء.

اقتربتُ اليوم، وكالعادة بخطى الشباب نحو عيونهم التي اعتصرتها ساعات الأيام والليالي، لم تعد تفصلني عن "حياضهم" غير خطوة أوأقل. وجدتهم واقفين كالعادة ببرانيسهم الوبرية اللّون والمخيط.

ثلاثةٌ هم من كبار حيّينا سنًا، مختلفون في الأمزجة أشد الاختلاف، وبرغم تقاربهم في الأعمار –على ما يبدو للناظر- فإن اختلافهم هذا لا تشوبه إلا علامات الشيخوخة، التي سرت إلى الوجوه في صمت وروية وكست بدفءٍ تلك الأبدان، وكأن بتلك التجاعيد التي تشق بشرة أغلبهم أمواجٌ لأصوات بحّة كساها النشاز، تتلوّى وسط لحن بعيد الصدى استعارته خلسة من تجربة الحياة، تجربةً ادّخرتها بإحكامٍ أدمغتهم المكسوة بجماجم صلبة معمّمة طول العام، تلك العمائم البيضاء تحتضن رؤوسهم بحياء وهدوء.

همٌّ تمسي، كلما أبصرتهم قبيل الغروب، تيجانًا لؤلؤية لا يزاحم نصاعتها إلا حبّاتٌ من غبارٍ، تتناثر في أرجاء المكان كمن

يتخبّطه الجن من المس، ويتناثر حولها وحول المجلس المسائي الذي يضمنا غبارٌ مختلف... إنه غبار المدينة.

سعد، الشيخ سعد الثمانينيُّ من الرفاق هو أكبر الجمع، ما زال رغم سريان الهرم موفور الطول، حالمًا بعيون تتوسط همّة شاب أربعينيٍّ مثلي، يُغري حديث سعد الهادئ بنبرات صوته الممزوج بعصارة السنين أفئدة الأصحاب والمارين حول الأصحاب، أولئك القلائل الذين يسترقون الشفاه قبيل أن تتفوه بالكلمات.

مع إلقائه السلام، اعتاد سعد - كلما دنا- أن يرمي بعصاه بحركة سحرية نحو عرشه، ذلك المكان أين يرتاح جسده المتعب، كأنه بذلك يبعث بإشارة متقنة تجدّد الثقة بالمكان، وتُبعد عن الغير -من بقية الرفقاء- حلم الجلوس في ذلك المتّكأ المزعوم.

في إحدى الأمسيات الشتوية، التي استعارت من الصيف لفحةَ من شمس الأصيل، لم أجد إلا سعدًا وحيدًا كالظل في الصحراء، ولا يوحي وقوفه - على غير العادة- أن الأمر على ما يرام، رأيته واقفًا وكله وجوم، والصمت يهيمن عليه وعلى المكان، ولأول مرّة بدا أن درّته الخيزرانية بعيدة عن يديه، تلك التي ما فتئ يفاخر بلونها وملمسها وبرسمها لطريقه المتخيّل في العيون سجّادًا أحمرًا فاخرًا، تساءلت عن سرّ وقوفه دون البقية، فليس من عادته وصوله باكرًا

إلى الحديث وأهله، إنه اليوم وحيد، لا عصا في يده ولا عيون تبرق كسابق عهدها لرؤية الآخرين.

اقتربت منه، ومع السلام بقي اللّقاء دون كلام، مرّت عشر دقائق أوتكاد، وقد أمسيت رفقته صامتًا، لا حديث يجمعنا كما عهدنا.

مع مرور لحظات على هذه الحال، دنا منّا ومن المجلس ثالثنا، الذي يعرفه ركننا المهيمن على أطهر حيّز في الأرجاء، كيف لا؟ وهو المحاذي لمسجد الحي "المسجد الجديد"، ذلك الركن المعروف عند الحي وأهله بركن "الأجيال"، ركنٌ جمع أربعة رجال، ثلاثة منهم في أرذل العمر أويكادون، ورابع لا يكاد يعرف من الدنيا غير أمسياتها، المليئة بحكايات الشيوخ الممزوجة برحلة الأعمار صيفًا وشتاءً.

دنا قدّور ثالثنا، ولسانه – هو الآخر- لا يكاد يطاوعه على ما اعتاد من كلام وحبور، لم يترك لنا وقتًا لملاحظة شفاهه المدهونة جفافًا والمكسوّة تيهًا واضطرابًا.

لم تكد تمضي على جلسة ثلاثتنا ثلاث دقائق، حتى عُرف السبب وبطُل –عندي- السّر والعجب.

انقضت الدّقائق الثلاث إذن، ومع انتهاء ثانيتها الأخيرة،

أخذتنا الخطى المختلفة الأعمار إلى غير هدى، كيف لا؟ ورابعنا رقد - فجأة- على سرير المرض والموت المتلهف لجسده النّحيف يطارد روحًا لم تنعم - من الدنيا- إلا بولد أوحد.



وصلنا إلى مستشفى المدينة، ورائحة المرض تفوح من أرجائه برغم نظافة القاعات، واجتهاد المنظفات في الكنس على طول الأروقة وعرضها، وصلتْ بنا الخطى المغلّفة بالصمت إلى الغرفة العاشرة، حيث يرقد محمود.

ما كدنا نلج الغرفة الـ "العاشرة"، الرباعية التصميم والأحادية المريض، حتى بدا لنا الوجه مختلفًا، وقد أمسى شاحبًا مع نظرة مثقلة، بالكاد يرنو للحياة، عيونٌ كأنها حملت الدّاء منذ سنين وليس ليوم أوبعض يوم.

بالكاد استقام من على وسادته، باذلاً الجهد لبعث الابتسامة لزائريه، بعد أن غادر أهله... وابنه وحيد.

فر منّي سؤال نحوه:

- كيف أنت الآن؟

- الحمد لله على كل حال.

بدا جوابه مجهدًا، ونبرته بالكاد حرّكت الشفاه.

لم أتوقع – مع أول سؤال للزائرين– أن محمود بهذه الرّقة وذلك الحنان المفرط، مع امتزاج غريب بين قوّة داخلية لرجلٍ قويٍ وضعف إنساني غريب، كيف لا؟ ودمعةٌ هي الأولى التي استوقفتني

واستحضرت صورة المشهد وغرابته، ولم أعِ حينها أهي عنفوان في رقة كانت –عنّي- خفية، أم هو الإنسان – هكذا- في لحظات تساميه الوجداني العفوي؟ لا سبيل أمامه إلى كتمان ما يدّخر من أحاسيس مغمورة في دهاليز النّفس وما تخفي.

غادرتُ المكان روحيًا، وبقيت مع أجساد الشيوخ، في وسط تلك الغرفة الممزوجة – كالمدينة- بتناقضات عناصر من الدنيا.

مع طريق العودة، كان سعد صاحب السبق في الحديث، وهو الذي يفوق محمود بحوالي عشر سنين، بينما قدّور يحضر حينًا ويغيب–مثلي- عن المشهد في أحايين كثيرة.

بين نهاية تلك الساعة التي بدأت مع بداية الزيارة ومغادرتنا للعليل وغرفته، مضت علينا دهور ودهور، ممزوجة في كثير منها بكأس الحزن المسكوب على حال محمود، المستلقي في مشهدٍ لم نكن لنراه في غير هذا الموقف وفي غير هذا الحين، لأننا لم نعهد محمود إلا ذلك الصلب القوي، المغلّف حديثه على الدوام بصرامة نادرة، تعلوها حجة لا يشق لها غبارٌ، كغبار المدينة.

قبل الخروج بدا لي من الغريب أن لا أحد من حزمة الأصدقاء، استحضر لحظة ضعف محمود تلك، غداة نظر إلى عيوننا وهي تتلطّف بالسلام عليه، ووجدتني أتخيل المشهد وكأنني الوحيد من

رأى اللوحة الإنسانية ومشهدها المؤثر... لست أدري، ربما بدت لي الصورة –دون غيري– كذلك.

مع آخر نفسٍ لخطوات الرجوع، التي لم تدم طويلاً، بادرني سعد وهو بالكاد يسير على قدمين ألفتا عصا، استعاض عنها بكتفي، قائلاً لي:

- أتعرف أن لمحمود ابنًا من زوجة، غير التي شاهدتها تخرج قبلنا؟

أجبته والحيرة تعلو الشفاه:

- لا، على الإطلاق.

لم يعد لسؤالي أدنى قيمة، وأنا أستحضر لحظات المساء تلك، إذ كانت لقاءاتٍ لأصدقاء ورفاق يعرفون بعضهم أشد المعرفة، ويجهلون في الآن نفسه كنه بعضهم، وما بداخل كل واحد منه من صراع الحياة، وثقل أعبائها واختلاف مصائرها، لحظاتٌ خاصة وبطعم خاص، تلك التي تجمعنا في ركن الأجيال، فيها شطرٌ كبير من التناقض، ومفارقة أخرى غريبة، قد امتزجت فيها الأجيال والأعمار، ركن جمع بين الأمزجة والمشاعر، رجلٌ أربعيني أويكاد يقاسم لحظات العمر أوما بقي منها مع ثلاثة من أكبر من في

الحيّ سنًا وأغربهم مزاجًا وأغمضهم تفكيرًا. غرابةٌ بدأت ملامحها تتبدّى مع أول لقاء لهؤلاء الشيوخ مع شابٍ، بدا

- كما قال أهل الحي- أقرب إلى تجربتهم وأدنى إلى أذهانهم منه إلى حيوية الشباب ممن هم في سنه أويكادون، على الرغم من نضارة العمر ولمحة العنفوان المختفية في سنواته الأربعين.

كان لقائي بشيوخ الحي الثلاثة مختلفًا، محمود الستّيني وقدّور السبعيني وسعد ذلك البكر بينهم، والأقربهم إلى قلبي وعقلي.



انضممت باكرًا إلى بطالة قاتلة، على الرغم من الذّكاء الفطري «المتّقد»، أوهكذا لاحظ مدرّسي الأول، لم يكن بمقدوري أن أحلم برغيف الخبز، الدافئ طعمه ومذاقه على كراسة بالية، أوداخل قلم حبر مهلهل.

لم أجد بدًا بعد مساري المتذبذب من البحث - وبغريزة البقاء الكونية- على مصدر قار للقوت، وكوخ من خشب الكرامة يحفظ الماء ووجهه.

اشتغلت - مُجْبَرًا- بائعًا في مكتبة الحي، وهي للأمانة ورّاقة، أكثر منها رفوف للكتب، يملكها أحدٌ من أبناء عمومة الشيخ سعد، وبالرغم من غنى الرفوف وما تحمله أسطر أسفارها، إلا أنني عانيت -ولا زلت - أعاني شيئًا غير قليل من قلة الحال، وفيما مضى رافقني الفقر وما يتبعه حتى في لحظات البسمة، ظروف المكتبة ودخلها المادي لا يختلف عن المكتبات العربية وورّاقاتها، فالدّخل على عظمه في حالات الذروة لا يسمن من جوع ولا يغني الفرد - من مثل حالي- بقوت اليوم، وتكبر المرارة، من حينٍ إلى حين، حين يحتدم العراك بيني وبين روّاد المكتبة، ذلك أن السؤال عن العناوين كبير وملُح، واقتناؤها لا يكاد يذكر، كنت أعود إلى البيت وبالكاد تُبصر الوالدة رغيف الخبز وقطع الجبن التي يبمث

شكلها المَشوّه على الحط من قيمة حاملها، غير أن تلك الحصيلة المليئة بالمرارة كانت تُشعل أحيانًا في أعماقي بعض الطمأنينة، لأني ببساطة أفضل بكثير من الكثير من أبناء جيلي.

برغم كساد سوق الورق وحبره وأسطر كتبه في تلك الآونة، إلا أن قدوم المواسم الدراسية تنعش آمال أمثالي وحياتهم، فهي حصيلة العام لا فصل الخريف فحسب، فمع بداية أكتوبر أونهاية سبتمبر من كل عام تنبت مع قطرات المطر المختلطة بغبار مدينتي بشاشة في الدّار ويتبدّل مزاج الوالد حين يستقبل قفة الموسم الثالث، أذكر إحدى جمله، وهي تختصر ما تختصر:

- كلما امتلأت قفّتك في هذه الدّيار، ترتفع في بورصة الحياة أسهمك.

قد يكون لهذا الوالد البكر كل الحق في الحبور مع قلة ذات اليد وطول مكوثها في دارنا، أما الوالدة، فهي صبورة – برغم شظف العيش ومرارة العاهة– إلى حد الجنون، يعتريني شعورٌ بأن سبب إشفاق البعض من العيون عليّ في نوادر الأيام ومنهم الشيخ سعد، هو غرابة صبر تلك الأم المأسورة بالألم والأمل في ذات الحين، وقد بدا ذلك ذات يوم حين ساهم سعد بعودتي إلى رفوف المكتبة، بعد عراكٍ لم يدم طويلاً مع ابن أخيه، ترك أثرًا في نفسي إلى حدّ الساعة، ساعتها ولجتّ إلى المحل الورقي إحدى من يعرف الكثير

من أبناء الحي، وهي على ما بدا لا ترغب في ورق ولا كتب، ولاقيت بسبب تردّدها، وتبرمي منها ما لاقيت من بقايا شباب الحي، حتى تسابق إلى مسمعي -همسًا- نعتُ المعتوه وقد لفّ الوصف عبارة «المخنث الأحمق»، قد لا أكون كذلك - على ما أعتقد- ولكن لا أحد قادرٌ على استجلاء الحقيقة غيري، وغير صمتي الذي مبعثه ركام سنين الأربعين.

- إنه جار وابن عم، لا تكن أنت والزمن عليه.

كانت تلك إحدى كلمات الشيخ سعد لابن أخيه.

مدين أنا للشيخ المجرّب، الذي أخرجني من ذاك العراك وأكسبني ود العمومة واحترامهم.

عدت كعهدي لكرسيّ الوراقة، الذي يكاد يشعرني أن روحًا من الطموح تغلّف ذلك الخشب المصقول، ربما لذلك السبب وجدّتني أحتفظ به، متوجًا أحد أركان غرفتي التي لا تنعم بزينة غير مكتبة خاصة، أراها - لشغفي بالكتب- أغنى ما في المدينة وما في غبارها.

في المكتبة معاناة مزدوجة، معاناة الانتظار فكساد للبضاعة، فضيق مادي بالضرورة، إذ برغم غيث الخبز وقطع الجبن المتأتى من سمائها كل مساء، فإن خارج أسوارها مليء بوحشة الوحدة، الداعية للركون جانبًا، والابتعاد عن أبناء الحي وشبابه.

أنا من أهل المدينة ولا أرى أن بي عيبًا ظاهرًا، فلا قصور في الجسد ولا شذوذ في الأفكار، يدعوهم إلى نبذي وإقصائي، ولكنني لم أحظ بكثير أصدقاء ولا حنان جيرة، فمنذ الطفولة لست محبوب الحيّ ولا مثالاً للرفقة أومطمحًا للصحبة، عزائي أنني أصبو لحالٍ كحال النبي موسى، فقد حيز محبة الخالق وقد نفّرت سمرته – ربما– الملوك وعبيدهم، وكبر أنفه – في سنه المهد – أبعد عنه المحبّين حتى في ساحل البحر، وكيف أكون كذلك وقد شيع – عني– بين تلك الجدران الممزوجة بغبار المدينة، جاهلاً مصدر ذلك آناء تلك الحقبة الموحشة، أن داء الوحدة المرتبط في أذهان من هم خلف الجدران بالجنون هو دائي، وأن جفائي للغير مرضٌ توارثته أبًا عن جد، وأن حديثي مع ناس الحي قد لا ينتهي إلا وسعارٌ منتهاه.. و...

ربما قصر النظر وشيء من النحول منعا غير قليل من الود، وأبعد كثيرًا من الخلاّن عدا شيوخ الحي الثلاثة، فهؤلاء من آنست بصحبتهم لردح من الزمن أراه دهرًا لسعته وألفة ثوانيه.

غنيةً، كانت تلك الرفقة.

أمسى ثلاثتهم – دون ريب– أسرةً لي وأهلاً، حتى شعرت أثناء تلك الفترة أنهم بحق أوحد النّاس لي حبًا وأقربهم إلى قلبي، على الرغم من اختلاف مناسبات التّعرف على كل واحد منهم.

قبل معرفتي بهم والتحاقي بناديهم المحدّد بعيد ساعات العصر، بين حنايا الرّكن المعروف ذاك، لم يُعرف أنهم صاحبوا أحدًا غيري، طوال عشرين عامًا، غير ثلاثتهم.

عشرون عامًا، كان أصغرهم من قبع جسده النحيل – كجسدي- في الغرفة العاشرة، في عمري الآن، وكان لا يذكر كلما تحدّث إلا أن هذه المدينة متفرّدة في كل شيء، في علاقات أهلها، في أمزجتهم المختلفة، بل –حتى- في لون غبارها، الذي طالما غزاها مع أمسيات الصيف والخريف، وشطرًا من الشتاء والرّبيع، الآن، وقد عاصرت الأمسيات تلك، أراني لا أختلف معه كثيرًا في نظرته تلك.

لكأنني بغبار المدينة غريب في اللّون عجيب في التأثير، إذ لم تحفل أذناي بخبر أن غبارًا يدوم ليومين أوثلاثة متواصلة أحيانًا، إلا في تلك القصص الغابرة، حينما يكون الغبار فيها عذابًا إلهيًا، لا حالة من الطقس أو تقلّبًا في الأجواء نادرٌ وشاذ.

أذكر أننا تحدّثنا طويلاً في مساءات عديدة عن سر تفرد مدينتنا بغبارها الغريب تحت هذه السماء المتأملة في خطوات البشر التائهة بين الشك واليقين، شكٌّ دعاني إلى حيرة ترجمت السؤال:

- أهناك سرٌّ وراء هذا الغبار، الغريب لونه، المرافق لليال مليئة بحبّاته؟

- إنه العذاب، عذاب القدر...

تساءلت حينها، ولّمحت لغير قدّور بأن يدلي بدلوه، وقد انبعث صوتٌ قائلاً:

- إنها لعنة صالحي المدينة...

لم أُرِدِ أن أبوح بما في خاطري هذه المرة، لأن الشيخ سعد يدرك أنني ممن لا يذهبون بعيدًا بهذه الطوباوية، التي تعرف لدى غيري بـ الدروشة.

أردف الشيخ الخبير:

- في بلدة يُقتل فيها الدروايش مع الفجر من أجل دينار، ويمسي فيه الصبي جائعًا... ألا تستحق لعنة صالحيها؟

تشجعت، وكأنني فردٌ من ثقافة غير التي كست هذه الوجوه الهرمة:

- يا حاج، ليست مدينتنا الأولى ولا الأخيرة التي يُذلّ فيها الأضعف في دائرتها الاجتماعية الهشة.

صمتت الشفاه وراح الحوار يسبح في غبار المدينة، دون أن يحفل بمتعة الغوص فيها...

بعد حديثنا، الذي دعا الذاكرة لأنْ تستحضر لعنة الفراعنة،

عبر لعنة المدينة وقسوة غبارها «الملتحف» بكثير من الأسى، المغلّف بكثافة حبّات الرمل الممزوجة بصمت الكآبة، عادت بي الذّاكرة إلى رسالةٍ، قلبت عبر أسطرها المتزاحمة بالجمل والمشاعر وعوالم الأحلام الكثير من تصوراتي عن دنياي، وعن تناقضات ما يحيط بي وبها، لم يكن بمقدوري بعد قراءة كل حرف منها، أن أفر من ذكرياتي، المرادفة لكثير من تبعات الأسرة، القاسية ظروفها، أسرةٌ لم أسمع منها عبر اختلاف أفرادها غير تردّدات متواصلة، تُستهل بموجة أثيرية عن هوية نصفي الآخر وتنتهي عادة بصمت دائم منّي، يعلن انتهاء حصاد بعض الأيام وثوانيها، نصفٌ لا زلت حتى السّاعة أبحث عنه، أومازال يبحث عني، لتكتمل دائرة الزمن التي تلح الأسرة على تلوينها –عبر تكرار السؤال- بلونها الاجتماعي المتوارث أبًا عن جد.

لكن، نصفي الآخر – الغائب في كف القدر- هو أشبه بعصارة كلمة ذكرها ثالث الأصدقاء غداة أمسية شتوية، مضى على أفول نجمها بضع سنين، حينما أخذ نَفَسًا يكاد يكون آخر شطرٍ من عمر سيجارة سمراء، وهو يطوف ببصره نحو فضاءات هذه المدينة الحبلى بالأفراح والأحزان، الممزوجة بغبار آدمي وغير آدمي، مدينةٌ، جمعت تناقضات الدنيا كما جمعتنا قائلاً:

- «إنّك تطارد خيط دخان»..

أعرف الآن ما دلّت عليه تلك الجملة، وما زادني إدراكًا لما حوت هو شغفي بصوت ذلك العندليب، الذي صدح غير قليل بتلك الألحان...



عدت إلى مكتبتي، وأخرجت –على غير العادة– من ذلك المكتب القديم محبرتي، وقد بدت مقلوبة في رفّها العتيق، والتي قد يعود إلى لونها الدّري شيء من الفضل أنّها ساهمت كتابتي لأول عمل قصصي، لازلت حتى الساعة أفاخر به وأدّخر له بعيدًا عن العيون مكانًا في رفوف هذه المكتبة، المزدانة بالتّاريخ ورائحته، محبرةً كما جاء في متن القصة، مهداة من الوالد في أحد أيام البرد اللافح، الممزوج بسكون الحركة والأصوات، والد لم يتلق تعليمًا عال، ولم تحفظ ذاكرته إلا شذرات لغوية، وأخرى تراثية من آداب العرب، متناثرةً في الكتاتيب المزدانة بها ربوع بلد لازال الخواء يغطّيه برغم غنى الأرض والسماء.

تصفحت بالقرب من محبرتي، بعض الرسائل الواردة إليّ، والمتراصة فوق بعضها البعض، بعد أن امتزجت في أعماقي علامات من الحيرة والسؤال، وأخرى من التّهكم لما آل إليه أمري في فترة غير بعيدة من الزمن، فترة قاسمت معاناتها ومعاناتي مع مجموعتي التي طغى عليها الهرم، وشاركتهم غير عابئ بفارق السن، ما شعرت به حينما حملت قلم الرّسالة الأولى.

حينما كتبت الأسطر الأولى لرسائلي تلك، كانت عديد الأفكار والمشاعر المليئة أغلبها بحالات من الضعف النفسي الرّهيب، تسبح

في الصفحات بشيء كبير من السلاسة والمرونة، ومعها - على رأي محمود- كثير من الثقافة، جعلته يسائلني:

- من أين لك كل هذه الثقافة؟ تتمّ الرسالة على معرفة ودراية.

- تلك بقايا من دراستي في الصفوف الابتدائية ليس إلا... مع بعض توابل مكتبتي..

كان مدرّسي، أثناء تلك الفترة، أحد أشقّاء صديقنا محمود واسمه «أبو بكر»، وقد أتيح لي معرفة ذلك لاحقًا عندما جمعتني الصدفة بالرجلين معًا، عُرف عن تلك العائلة مقدرةً لا تصفها اللغة ولا يحدّها شكل من التواصل بين النّاس وربط شبكات من الاحتكاك الاجتماعي، على الرغم من أن عدد أفرادها على حد رواية محمود لا يكاد يفوق أصابع اليد الواحدة، كما أنهم من أصح من عرف الحي والمدينة كلها، إذ لم أسمع.

- في حدود ما جاءني من صدى هذه المدينة وعلى حبات غبارها- أن فردًا منها مات بداء أوشبهة علّة، بعد أن عمّروا - كلهم- أوكادوا، فكل الغرابة حقًا هو استسلام محمود لمرض أقعده منذ أيام، جعلنا كلما جلسنا نشعر أن غياب فرد منّا، هو نقصان كبير في عمر أيامنا بل وفي اقتراب للعلل وأشباهها.

حل مساءٌ آخر، متعبًا مرهقًا كخطوات العم سعد، الذي وجد لنفسه ولعصاه مكانًا بالقرب من ركننا المقدّس، وحلّ معه قدّور في حالة من الصفاء والحبور، لم أعرف سرّها، بالرغم من كوني أول الواصلين في عصرٍ لا بيع فيه ولا خلّة.

لم أشهد – ومكتبتي- كسادًا كالذي أمر به، ولكنها على ما يبدو استراحة محارب، إذ بُعَيْد أيام سيتزاحم بين جدرانها الطلبة من كل الأطوار، حاملين لقصاصات أشبه ما تكون بوصفة طبيب مبتدئ، تملؤها صنوف الكراريس والأقلام وباقي لوازم الدّراسة، التي تشق على كثير من أولياء التلاميذ.



أخذ كل منّا مكانه، بالقرب من ركننا، ومع جلسة القرفصاء المحمية بجلابيتي السمراء، والمحاطة بالشيخين المندسّين في «قندورتين» وعلى كتف كل منهما برنوسه استعدادًا لتقلب الأجواء مع نسمات الخريف المستعارة من ريح الشمال، بدأ الشيخ قدّور بطرح السؤال، موجّهًا صوبي النظر، ودون مقدّمات قال لي:

- ما جديدك، أيها الشّاب؟

رسمت كلمة الشاب ابتسامة جافة على الشفاه، وبعد صمت دام لبضع ثوانٍ، زاحمت الهواء عبر جواب:

- ما جديد رجل مثلي برأيك يا عم؟... دار لقمان على حالها.

اقترب مني صوته أكثر من ذي قبل، ومع نظرات تهادت من العم سعد كأنها إشارة لاستهلال الموضوع القديم الجديد:

- أدرك أن الأمر يتعبك، ولكن الحياة يا بني – دون رفيقة العمر– عبء وتعب.

أطرقت مليًا قبل أن أرد، وكأنني بالرّجلين أبًا في صورة مزدوجة:

- يا أعمام.. انقضى أمر الزواج من ذاكرتي، ولست أرى أن هناك امرأة تستحق مغامرة جديدة.

أجاب محمود سريعًا، باعثًا إلى سعد وإليَّ، عبر لمح البصر، قبسًا من عيون يختصر بشيء من الألفة كثيرًا من أحاديث الزمن:

- لا تكن كما كان عمّك سعد، لا تتحجج مثله، وفي الأخير أقبل على الدّنيا .. ولا يخفيك أنه لم يعرف الأنثى في السكن وفي العشرة إلا في سنّك أوأكثر بقليل.

أشعرتني لفظة «سنّك» بأنني قد اقتربت سريعًا من خريف العمر ويأسه.. تناست الدّنيا على ما هو بادٍ أن الأربعين شطر الشباب.

لم أجدني قادرًا على مواصلة الأخذ والعطاء اللفظي كما هي العادة، وغادرت المكان والجسد بينهم، عبر صمتٍ أُرسلت موجاته عبر نظرات منّي يدركها الرّجلان، وبالأخص الشيخ سعد، الذي أزاح عنّي الجواب وعبئه قائلاً:

- يا سي قدّور، ليس الرجل بالفتى الصغير، ولا حاجة –لك وله– بكبير نصح، أما عنّي فلا أراني مثالاً للتجربة.

توجه سعد بناظريه نحوي، وهو يحرّك عصاه إلى جهة أخرى غير التي يضع رجليه المثقلة بآثار الشباب واندفاعه، قائلاً لي:

- لا تستحق تجربتي كل هذا الثناء..

أجبت العم سعد بشيء كبير من الأريحية نشأت مع عذب حديثه، محاولاً إيقاظ ساعات الدعابة التي كانت سببًا في معرفتي به أول مرّة، قائلاً:

- أعتقد أن تجربتك مع النساء ثرية وغنية، لقد جعلتك ربما تخشى عليها وعلى لذّتها من حسد أمثالي..

مع ابتسامته التي اختصرت شيئًا من جمال الحياة، وكثيرًا من مخلّفات السنين وآثارها، أردف بالقول وهو يبعث إلى العم قدّور نظراتٍ كرسائل الرّد:

- أتذكر وعكتي في العام الماضي؟

بعد لحظات صمت، أضاف وابتسامته المريضة أمست جملة اعتراضية في وسط نصٍ من غبار الحيرة:

- بالطبع، أتعتقد أن ذاكرتي هشة؟ ليس بعد.

- في العام الماضي إن كنت تذكر تفاصيل ذلك اليوم أيها الغر، لم أجد بين جدران غرفتي إلاك، حتى هؤلاء الأحبة لم يسعفهم الزمن والجهد إلى أن يكونوا إلى جانبي، إلا بعد ساعات، حينما تماثل هذا الجسد المتعب إلى الشفاء، ورغم ذلك لم أستحضر لحظة واحدة أن لي من الولد ما

يغنيني عنك وعن الزائرين برغم قلّتهم.

سبقته تنهدات الشيخوخة قبل أن يواصل:

- لا ولد ينفع ولا مال.. ولا شريك؟

واصل الحديث، كأنه يبعث بالنصح عبر غلاف قصّته:

- لا تتصور أنك تأخرت في الزواج... ولا تظن أنه أسمى مآرب الدنيا سعادة، أما الولد فأنت الأدرى.

لم يشأ العم سعد أن يخوض بكثير من التفاصيل، وقد عانيت بأم العين أطوار ما جرى له، وإن كنت لا أستحضر الأمر إلا من حديث الأصدقاء عن معاناة العم سعد، التي زاد في أساها ثمرة الحياة المرّة المذاق، وقد حلّفني كتم ما رأيت، وإن كنت الأوحد، لن أنسى تخلي الفتى عن والده الشيخ والذي بالكاد يجر الجسد، بعد أن تركته الزوجة فرارًا في أبشع صور الهروب من معترك الحياة.

لم يعهد هذا الرجل الصلب، وهو من طينة أولئك الذين تحكّموا بيد من حديد في أكبادهم وذويهم، وذوي أبنائهم أن يعصي له أحد أمرًا، أوأن تمسي كلماته غبارًا كغبار هذه المدينة، وقد افترش الولد والزوجة مسكنه الفسيح وغنموا رغد العيش وسعته.

كانت –ولا زالت– صدمة الشيخ سعد كبيرة، ولا يعرف هولها

إلاه، ودليل جلده وقوّته أنه بقي صلب الطول مع نبرة من التعالي ممزوجة بسخرية من الدنيا، قد أكون من القلائل من تبدّى له ذلك، نعم عاصرته وهو صاحب الحول والطول، وكنت من أولئك الذين كانوا –ولا زلت– يرسمون له مكانة قد ساهمت أصداء الحي في هالتها وكبرها.

- لم يجرؤ أحد على قول لا أمامي.

وأضاف سي سعد، كأنه ينصح مقبلاً على حياة الزوجية:

- لا تقل للزوجة نعم أبدًا.

لم يكن بوسعي أن أناقش الشيخ، المتخوم بالتجربة، ولكنني أدركت سرّ المرارة التي كانت تلاحقه، وبشاعة النفور من استحضار التجربة المرة، حينما حدّثني عن قصة ثورته أمام زوجة وولد أرادا سلبه ما تبقى من قروش حفظها على مرّ الزمان.

يفاخر سعد بأنه حمل سلاح الشجاعة في زمن الرّعب، وقاوم في سنّه الباكر ذلك المحتل القابعة جرائمه في متاحف الضفة الأخرى، خلال سنين خلّفت آثارًا في أقدام الهرم، تجعل عين المبصر للحقيقة والتّاريخ يتوقف مليًا عند ركبته المشابهة لإحدى صفحات رسائلي المندسّة في إحدى الرّفوف، فَقَدُ الشيخ لذلك العضو من شجاعته،

أشعل كبرياء حنجرته حتى ما عادت تستطيب الهمس ولا تقوى عليه، فصوته الجهوري يضفي على وقوفه المزدان بعصا الحياة كثيرًا من الرّهبة.. رهبة تبدو – لمحمود وقدّور- بركة اقترابه من قبس الشهادة.

صلب وقويّ برغم الثمانين، فكيف تراه كان في أوج الشّباب؟ منبع الكبرياء قد يكون لا محالة من شعاع الشباب الأول، الذي صنع منه – في ذاكرة حيّنا والمدينة- قامة لرجل يمتد صلابة في كل شيء حتى في لحظات الصمت، تعتريني الغرابة وأكذّب حالي الآن ومع سلاسة رفقتنا، أجدني أسائل النفس:

كيف كان بوسعي أن جعلت تلك الروح المتينة قوة بإيمان وصدق تتهادى ببطء إلى رفقة مثلي، وهو- كما ذكر لي مرارًا- لم يكن ليصاحب من هم دونه سنًا ونضجًا ولن يفعل إلا معي.

ولكن، مع السنين العشرة التي عرفته فيها، أدركت من حين إلى حين سرّ تفضّل هذا الشيخ على أربعيني مثلي، في تقاسم رغيف الزّمن وقطرات الحياة وأنفاس تجربته الإنسانية الشديدة الثّراء.

قبيل سنوات من معرفة الشيوخ خرجت من المكتبة وعلى كتفي جلاّبيتي البنية، التي تبدو للعيان أنها ما تزال في ريعان شبابها رغم أنها عمّرت طويلاً، وكأنها بذلك قرأت رحم الأيام ونسخت

من أعمار رفقائي سنينًا وسنينًا، وبين ذراعي كتبٌ يخيّل لي أنني أستطيع قراءتها كلها، ولكن حين الوصول إلى الغرفة كعادة كل مساء تأخذ الكراريس والكتب التي رسمتُ لها آمال التلقي والقراءة مكانًا لها في رفٍّ جديد ما يلبث أن ينضم إلى خطوط النسيان.

وأنا أهِمّ بالدخول إلى المسجد -الذي لا يفرح بزيارتي إلا ظهر الجمع- لأنظّف ما خدشته رفوف المكتبة وتركت آثاره على ملابسي، وقبل أن تطأ أقدامي التي امتزجت فيها أحاسيس التسامي والانكسار عتبة المسجد التي ترتفع بثلاث لبنات عن مستوى الأرض، دنا إلى مسمعي صوت شيخ سبعيني قائلاً:

- لا ماء اليوم يا فتى.

أقبلت عليه والاستفهام باد على ملمحي.

ازداد مني قربًا، مستطردًا في الحديث، محاولاً تبرير أمر ندرة الماء:

- لم يعد الناس يعيرون لبيت الله حرمة ولا قدسية، يجيء الواحد منهم بين الصباح والمساء لا همّ له إلا قضاء حاجته في «وضّاءة المسجد»، لا صلاة تغريهم ولا قيام، لا دعاء يعنيهم ولا صيام... وهكذا ما عاد بخزّان الماء قطرة تروي عطش المصلين للطهارة ولا رشفة ماء للدّاعين.

امتزجت بداخلي حالة من الانكسار تهادت إليَّ عبر نسائم الجامع، وشيء من التبرم مما قاله الشيخ ومن الحظ الذي أتى بي لسماعه في هذه الساعة، مستشعرًا رغبة ملحة في الهروب من الموقف وبأني سأضحي كالهارب من لازمة المعرّة...

وجدتني مجبرًا على إجابة الرّجل، بما بدا لي ذكاءً مع الضحى:

- شاكرٌ لك تذكيري بما هو بادٍ للعيان؟ غير أني لا أرى في هذه السّاعة للمسجد روادًا، ومع صلاة الظهر أعلم أنّ زائريه من شيب الحي وكباره. كما لا يبدو لي من الجانحين في سن الفتوة كثيرو ولع بالطهر وبالوضوء سواي (مع فرار ضحكة منّي، بدت له صفراء ختمت الحديث).

قبل أن يتفوه الشيخ الهادئ ببنت شفا، وصل من مكان لا أعلمه صوت قرين الشيخ سنًا ووقارًا:

- أنت ابن الحاج عبد القادر، أليس كذلك؟

التفت وإذ بصوت العم سعد.

تلك كانت أول جملة بيننا، بل أول صدى للعم سعد يصل إلى طبلتي أذني.

أجبته ساعتها باقتضاب:

- نعم، يا عمّاه.

تفحّصني بعين حملت العديد من الكلمات والصور والتجارب، قبل أن يقترب بهدوء بالغ، قائلاً:

- صدقت يا فتى،

واستدار إلى العم زيّان:

- كما أصاب عمّك..

أدركت أن الواقع يجمع الرأيين، تمامًا كحال المدينة، التي جمعت في هذه اللحظة بين المطر المهداة زخّاته من سحب الوحشة، وحبّات الغبار المتناثر حولنا كأنه يزاحم القطر والعباد.

غبار يدعوهم على ما يبدو إلى الانصراف.

كانت هذه الكلمات، التي تعدّ على أصابع اليد، مدخلاً لصداقتي بمن يفوقني بأكثر من أربعين عامًا، وأضحى من ساعتها من أحب الرفاق القلائل، فلا رفاق لبائس مثلي يخفي في أعماقه سيلاً من رواسب الأحاسيس، لو أنّها صبّت على الأصم لتهدّم.



على زخّات المطر الذي استعار من هدوء الليل وسكونه نغمات تتهادى إلى المهاد المكسو جفافًا بروية ودلال، عادت بي المشاعر كما عاد بي الزّمن، وجالت على إثرها في خاطري فكرة قد تمحو عني وحدتي ولو لزمن، أوربما تحيي في داخلي جذوة الحياة، بعد عزوف عيون المها عن رؤية مثلي.

جال في خاطري أن أخاطب نفسي عبر الورق، أن أكتب لها ما بي وما يحيط بي، أن أعزّيها في هرمها المبكر، وأخفّف أثر ما يحيط بها من ألسن لاذعة وعيون أكثرها ممن هم في الحيّ قابعون، ما كادت تعود بي الخطوات إلى مكتبتي، حتى لاحت من وسط الوريقات التي ملأت سطحه المكسو بغبار المدينة تحت السماء الكئيبة ظرفٌ ناصع البياض محكم الإغلاق، مع أول النسمات التي فرّت من بابها اشتممت رائحة زكية خفيفة الوزن متّسعة التأثير، وإذ بها ممضية في الأسفل بحرفين د. إ (اعتقدت أنها تعني دون إمضاء).

قبل أن أكمل قراءة الرسالة الأولى وأهمّ بالجواب، جال في فكري أن أعود إلى رشدي، وألا أغامر بهذه التجربة القاسية، وألا أحاول أن أجيب، إنه جنون أن تهادن الجنون، ولكن ما لبث أن انطلق من قفص التّوق إلى الحياة سؤال آخر غيّر منحى قراري:

- ترى باسم من سأمضي رسائلي؟

قبل أن أطيل التفكير، كأني بصوت الوالدة ينطلق فارًا – كأحلامي- من البيت نحوي تمامًا، ويروي بلهجة بدوية مليئة باللوم عطش التأنيب: العمر لا ينتظر يا ولدي.

قفزت إليَّ من رف الذاكرة لفظة «العمر»، وراح بصري يسبح إلى الأعلى كعيون الجبابرة والحكام العرب المحدثين مستحضرًا لفظة مشابهة في تركيبها اللغوي من العمر إنها لفظة «القمر»، راح القمر يؤرخ في ذاكرتي للعمر، وبدأت بذلك إمضاء أولى رسائلي بـ قمر الزمان، إنه اسم العمر والحياة.

تلقيت الرسالة الأولى وقد أرّخت في ٢١ من ديسمبر، في يوم بارد جدًا، ما كان يدفئني فيه إلا تذكّري لرفقاء الرّكن الهادئ والمليء بالألفة، تذكرت خاصة محمود الذي عانى كثيرًا وهو في غرفة العناية، وقد أكل منه الألم والعمر ما أكل، غرفة في مستشفى المدينة، الباردة المثلجة في شتائها القاسي، ولكننا وسط هذا الجليد نستلذ لحظاتنا المسائية وسط حيّز دافئ بالكلمات والألفة وبدعاء الصالحين، إذ كلما ازدادت من حولنا الأجواء برودة وقرا، إلا وازداد الرّكن لنا احتواءً، وأشعرنا بالدفء والحرارة.

لا أعرف حتى الساعة سر دفء المكان، بالرغم من برودة الجو المحيط بالمدينة التي تئن من وخزات الغبار من حين إلى حين، ولا

أجد تفسيرًا يروي لهيب السؤال عن حرارة طوب المكان وحنان حيزه ومحيطه، فكلما جلسنا تهادت إليه أنفاس الدفء، كأنها استعارت من كانون الجدة جذوة أوشبه جذوة، وما إن يجرؤ أحد العابرين من ساكني الحي على الاغتراف من صمتنا إلا وشعرنا بما يشعره الغريب من لسع الزمهرير ووخز ريح الصقيع.

- إنها كرامات صالحي المدينة.

هكذا برّر الشيخ سعد تلك الظاهرة، التي لطالما أسماها الرفقاء بركة وكرامة.

قد لا تتوقف الغرابة في هذا الركن الجامع للأجيال بأقدامها الثابتة عند فصل الشتاء فحسب، إذ الغريب حقًا –دون ريب– بقاءه في حالة من الانتعاش صيفًا لا تضاهيها إلا نسمات البحر، التي أغرت بعض الوافدين من أندادهم شتاءً على اكتشاف الأمر، لكننا اكتشفنا غير مرة أن الأمر مختلف معنا. لا أحد على ما يبدو ينعم بألفة المكان ودفئه سوانا.

جلست على كرسيي العتيق، الذي طالما كان يؤنس وحشتي، ومعه من حين إلى حين سيجارة شقراء يعطي دخّانها المكان هالة من التأمل والغرق في عوالم الكتب والأسفار، لتختصر الكثير مما يحيط بها وبي.

قرأت أول الأحرف، وواصلت:

((أكتب إليك، وأنا الآن مثلك بين كتبي، حاملاً قلمًا من ماء ونار، وفي داخلي مؤمنة بأنني لست صاحبة كلمة ولا حرف، إليك أكتب... لأنك مثلي وحيدٌ بين صور الحياة، غريب عن نفوس تلوثت بغبار الخطيئة، وسابح مثل أحلامي ويومياتي في بحار من المجهول، نعم أنت وحيد مثلي، فجسدك النحيل يخفي قوة دافقة، تتوسط كيانك، كما تتوسط مكتبتك الحي والمدينة، غريب أنت في حديثك وفي صمتك وفي هندامك، أنت مثلي عاشق الأوهام ومولع بهالة الأسرار. د.إ.))

لم أطل الوقوف عند أسرار الرسالة وما تحمل من هواجس الانتظار والترقب والوجل، حتى سمعت صوتًا رُفع من صومعة المسجد الجديد، إنه صوت مؤذن الحي داعيًا للصلاة الوسطى، أخذت لي ولسجّادتي مكانًا في قلب المكتبة وتوجّهت بالدّعاء.



خرجت من بيتي، الذي يتوسط الحي، وحملت هذا الجسد المتعب وفي داخلي أفكارٌ وأحاديث استحضرتها الذّاكرة من زمن – برغم فتوته- يختزن الكثير من الصراعات النفسية، فتارة أستعيد شطرًا غير هيّن من طفولة متعبة، كانت مليئة بالتّوق والأحلام، كانت تدعوني كل صباح إلى رسم شمس دافئة غير التي أبصرتها تختفي وسط الغمام، إلى اللعب والمرح في كنف جو هادئ وباعث على الدّعة كالذي يتشكل بين مروج ما نراه من مسلسلات الغرب البعيد، وتارة أخرى أجدني أستعيد بمرارة رفوفًا مليئة بالأحزان اشعلتها صراعات الأسرة الموجعة بالحاجة والعدد الهائل من الأرجل المتزاحمة في بيت يضيق كل ساعة وكل يوم، والتي لم تكن تنتهي إلا بآثار مؤلمة في أجساد البراءة عبر سوط السطوة والجهل، المرسومة ملامحها في القوارير وأبنائهن.

في طريقي إلى مكتبتي، شعرت أن العيون على قلّتها من حولي ترقبني، فلا أجد هروبًا مما أراه يشعرني بالخجل إلا التنقيب في طفولتي. أكاد أشعر أن كل عين من تلك المحدّقة بي تبعث بأكثر من سؤال يشابه ما اعتادت الأم وغير الأم طرحه، اشعر أحيانًا أن بيني وبين الجنون –إن كنت أدرك حقًا ما الجنون- شعرةً كشعرة معاوية تلك التي تدّخر من غرابة الرسائل بيني وبين «الغريبة» كمًا هائلاً من هوسها.

لم تكن تحفل العيون وقد غزاها الضعف في طريق عملي المتواضع دخله ومكانه إلا بالثلاثة، أولئك المبكرين إلى الرّكن الحافل بالغريب والحامل لكل جديد المصاحب لرتابة الحي، فحينما أمر على شيوخ حيي وعمائمهم تهدي لهذا الأربعيني تحية الصباح، ومعها حركات الشفاه الممتلئة أيامًا وأسرارًا لا أجد وقتًا – منذ عرفتهم- لرؤية غيرهم، ولا في الجلوس لسواهم، عيونهم ليست كعيون الآخرين في داخلها حب وفي أجفانها لآلئ الأمس واليوم وربما ماسات الغد، لا أحفل إلا بلحظاتهم التي أقاسمهم إياها بعيد العصر، وهي فترة راحتي التي أستطيع استراقها بعيدًا عن القليل ممن يلج لخزينة الكتب وورّاقة التلاميذ، خزينة برغم فقر صاحبها فإن بركات ساحتها تجعلها تعظم من يوم إلى آخر، وأكثر ما يجعلها كذلك هِبات بين الفينة والأخرى من هنا وهناك، تتوجهَ هباتٌ من غريب يرسل مع هلال كل شهر «حوزة» تتنوع من فن إلى آخر بدأها بمصحف فاخر، لم يعد فاعل الخير مجهولاً لي وللمكتبة، ولم تعد هباته «الورقية» بالأمر العجاب والتي ترافقها وريقة أواثنتين تذيلها أدعية وكثير من السلام.

سارعت خطاي إلى المكتبة، لكأنهما مثلي تبحثان في حياة هذا الحي عن جديد هذا اليوم، المنسل في ثوب القدر، دخلت باب الرزق وشعرت كأنني أفتحه لأول مرة، ذلك أن جوًا منعشًا فر

بخطى خجولة إلى المكان وجعلني والمكتبة أسترجع مزاجًا تملؤه الرغبة في استيعاب الحياة واحتضان نسماتها المغرية، فتحت الباب ومعه ولجت إلى رئتي بلا استئذان رائحة كساها الشذى، ليست بالتأكيد من بقايا بخور الأمس الذي أرسله بعيد مغادرة الكثيرين من متطفلين عن الكتب والأوراق، مع إنهاء آخر دورة من المفتاح أدركت أن النسيم الياسميني يتهادى بدلال وغنج من علبة خُزّنت أسفل الباب بشكل قد لا يدعو أحدًا لملاحظته، ولا ملاحظة من وضعها، نسيت الرفوف لإغراء ما في العلبة الصباحية، ونسيت أن ألقي مفاتيح المكتبة -كعادتي- على مكتبي العتيق الحامل لبعض الهموم ولكثير من الديون، قبل أن أهمّ بفتحها وقد بدت عذراء نقية صافية، سمعت أحد التلاميذ وهو يبعث بالسلام:

- سلام سيدي، قلمُ حبر وورقة...

مع ذِكر الورقة والقلم، استحضرت رسالة الأمس ورأيتني أربط بين أسطرها وخيوط هذه العلبة المزدانة برغم بساطة شكلها بمجهول غريب.

أعدت – لشوقي- قراءة تلك الرسالة، وكأنني أفتش في كل حرفٍ فيها عمّن كتبها، وعن ذلك الفؤاد، الذي يملي على القلم سيل الأفكار، والمزدانٍ بوجدانية تتماهى وأشواقي، بحثت في كل حرف

عن عالمي وعالم الغريب، عن صاحبة الإمضاء، أدركت لأول مرة أن للإمضاء أبعادًا ممزوجة بالدلالات النفسية الغائبة على ما يبدو على قرّاء الرسائل من أمثالي.

أشعلت تلك الأحرف في ذاكرتي أضواء المدينة والحي ولم أعهد لها ذاك البريق، لقد كانت أنوار الحي قبيل تلك الرسالة ممزوجة بفضاء غباري داكن يولد في العادة مع المساء، هي أول الرسائل ويبدو أنها حين تسافر إلى القلب لا تغير المزاج فحسب، بل تغير وجه الدّنيا ووجه الحياة، لقد غيّرت مدينة مليئة بالتناقض وحبلى بأنواع من الغبار استحضرتها أمزجة الماضي الأسطوري الغريب.

لم أصح من غفوة عالم الخيال المتراكم حول ذهني، إلا على يد الفتى وهي تشد على قميصي الذي يغطي مرفقًا وذراع:

- عمّاه أين الورقة والقلم؟

عبّر عن امتعاضه، بعد أن أشار بعينيه غير واع إلى رفوف مقابلة لي تملؤها أقلام حبر وأوراق متناثرة، قد استضافت كالشارع المقابل لها شيئًا من الغبار المتهاطل كالرذاذ من حين إلى حين، لم يطل الفتى مكوثًا وخرج بما أراد، وتركني كعادتي مع وحدة تهادت هذه المرة لثوان قبل أن يطردها شغفي بالعلبة المزهوة أنوثة –وعطرًا– وغنجًا. فتحتها ومعها جاء السلام من قصاصة بدت

كشفاه لؤلؤية تحمل أسطرًا تشابهت عليّ أحرفها ككاتبها، فالخط يزاوج بين الإغراء والأنس وبعض الألفة. جاء في الرسالة ما يلي:

«أهديك هذه المجموعة، ربما تكون لك عونًا على نسيان هذا الفراغ وسط هذه الجدران المحيطة بك وبنا.»

كم كنت أتوق إلى رؤية إمضاء يشير إلى ذلك الإغراء – المرسوم في ذاكرتي- وتلك العبارات المرتدية من الأنس بعض الرّداء، لقد خلت القصاصة من الإمضاء وسحره، ولكن التمني والسؤال والشك هي عادة هذا الركن وهذه المكتبة وهذه المدينة.

«الذكريات الذهبية» «أحلام بغداد»، هي بعض تلك الكتب المهداة، هما عنوانان ما بعثا إلى قلبي رسائل من ذكريات أيقظتها أحلامٌ تهادت من سحر الشرق، كأن العبير وسحره المهيمن على عوالم المكتبة أغرى القلب قبل سحر الكلمات، حاولت عبر يد تحمل مفاتيح المكتبة أن أفتح كتاب الذكريات، غير أن دخول سي قدور – غير المتوقع- دعاني لتركهما على المكتب العتيق، والتوجه صوب صاحب الصوت:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا سي قدور... «قرّب»، خطواتك عزيزة لم

نعهد تشريفها لنا...

دنا مني ومن جناح كتب التاريخ وأشار بيده بأن أغلق باب المكتبة والسير برفقته. مع إشارة سي قدّور بالمسير وخزت هذا القلب نبضة غريبة، قد اعتدتها منذ سني الصبا، تلك نبضة من الخوف ارتبطت بشيء من استشراف الآتي التّعيس، إنها مَلَكَةٌ إلهية بدت لي نخفف في كل مرة من روع ما هو آتٍ، ليس لي مقدرة أن أعرف سرّها وسر توقيتها، إنها أشبه بحاسة الكائنات غير الآدمية حين تودع فيها إشارات «فطرية» لاقتراب زلزال، قد تختلف درجة قوّته على سلم ريختر من منطقة إلى أخرى، إن مدينتي برغم غبارها المجبول على الأسرار، فهي بمنأى عن تلك الزلازل «الوبائية» في حصد الأرواح في مواسم الحر والقر.

خرجنا إلى الحي مبتعدين بعيدًا عن ركن الأجيال بكثير من الخطوات، ومع المسير دنا منّي –دون رفيقي– صوت الوالدة بحًا مرسلاً نحيبًا غير عاد، وصلني صوت الحزن والكآبة مشوشًا، باعثًا في استحضار وحدتي، التي بدت لي موروثة من جيناتها.

غادرني سي قدور، بعد أن أخبرني الخبر وسط حياءٍ موروث من المدينة والضيق يعتصره، راح سي قدور مكبّلاً بالأسى، مستغربًا على ما يبدو برودًا حينما قال:

- كلنا سنموت ولا بقاء لأحد.

- أدرك ذلك يا سي قدور، وأعلم أن حبيبًا غادرني.

لم ير أثرًا في عيوني على من رحل، غير مدرك على ما يبدو أنني أصبحت أحمل في أعماقي تطعيمًا بيولوجيًا موروثًا –على ما يبدو– ضد أخبار الفواجع وأخبار الموت.

لقد مات الخال، هكذا استقبلت الأم فقد آخر ما تبقى لها من أغصان حياة أسرتها، قبل هذا العام، مات والدها من كان لي آخر جد ثم الأخ وابن الأخ والأخت في بادية تضرب لها أكباد الإبل، بعيدة عن مدينتي التي خاصمها الغبار لهذا المساء، وكأن به خصيم الوادعين والمكلومين، وعدو من يصبو للحياة ويستحضر التفاؤل، تفاؤلٌ غادرني –كما يفعل كل حين– بسماع صوت الوالدة الأشج، التي لم تستطع رغم جبروت الصبر الذي تكدّس عبر السنين أن تبعث بكثير الدمع، إلا قطرة يتيمة ولكنها أحرقت لهف الحياة وشغف التصابي، أرسلت مجبرة دمعة حرة من قلبٍ موجوع اختزل أسطرًا من حديث وصفحات من وصف، بين يدي الوالد القابع في حيز مظلم، ومعها أنفاس من شفاه بحة:

- لقد رحل الكل.

ووسط تنهدات تعلو نحوي حينًا وتهوي أحيانًا أردفت بالقول:

- لم يبق (وهي تبصر إلى الجدران) من أهل والدتك إلاك.

كأني بها عبر كل كلمة تحاول إنهاء فترة الحداد باكرًا، لم يعد وسط غبار آدمي من عبثية أحد هنا يلقي للموت بالاً، بعدما كان حديث النّاس والصحف... مع قطرات الماء القليلة الوفود إلى هذه الأرض البور.

أعادني حداد الوالدة الممزوج بسراب الوداع برسائلي الأسيرة في أحد رفوف مكتبي، تلك التي اعتصرت عبر حبرها الممزوج بالألم وكثير من الرّغبة في الابتعاد عن كل ما يعكّر صفوة وحدتي، بعيدًا عن عيون أهل الحي ممن لا حديث بأفواههم إلا مال ذاك وجمال تلك ونفور هذا الفتى أوذاك، وشفاههم المليئة بأسئلة الوهم المشابهة لما قيل لي:

- لم كل هذا التأخر في الزواج؟

- عنده مصدر رزق، وله بيت الأسرة، فهل يشكو من علّة؟

- الا يخشى من أمراض الباطن؟

- الا؟

- لم؟

- كيف؟

أدوات للسؤال بدأت مع دروس المدرسة الابتدائية، لتلاحق خطوات العمر إلى سن الأربعين، مع رحيل من كان اسمها أشجان، سكنت في الأشجان ولا أعرف بالضبط إلى أي مرفأ –وبعد أي عمر– ستهدأ.

ليس للمرء الغارق في وسط أحلام مستعصية على كثير من أبناء أشباه المدن، أن يفكّ أسرارًا ويقنع أولئك الأبناء صغارًا وكبارًا أنهم مخطئون فيما يرونه أساسًا للحياة، أنهم ما زالوا يبيعون الوهم باسم الروابط الاجتماعية السوية، التي كانت ولازالت تقوم على الرباط بين رجل وامرأة، قد لا يعرف الكثير من أولئك –كروّاد المسجد المتاخم للحيّ– عند كل غدو للجمعة، أنهم وأهداف المسير خطّان متوازيان قد يبدو للعيان تناغمهما ولكنهم من المحال أن يلتقيان، إذ كيف للمصلحة باختلاف عملتها أن تكون ابتهالاً وتقرّبًا لله زلفى.

صمت في البيت إلا مشاعر الوالدة، التي ألهبت بصمتها ظلمة الدّار، وشارك الوالد الذي كأني أسمع صوته لأول مرّة، بحديث مقتضب طالبًا منّي وجوب إبداء الوّاجب عبر زيارة البقية مما تبقى

من أسرة شريكته، علّني في رأيه أفك طلاسم الوحدة:

- خذ والدتك مع الصباح... وبلّغهم تمازيّ.

هيأت نفسي لزيارة من تبقى من رائحة الأم الثكلى بالرّاحلين، والممتلئة حسرة على ماضي الزّمان وعلى شبح غده.



انقضى نهاري بعد مرافقة الوالدة، وعدت.

عدت باكرًا على غير العادة إلى شيوخ الحي، إلى الأحباب وفي فمي آثار كرم الزيارة من بنّ وما، ومن تفكّر في شكل الحياة عبر شكل الراحلين، غير أن امتثال صديقنا محمود إلى الراحة أذاب كثيرًا من مآسي ما رأيت عند الأخوال، وجلست وسطهم ووسط دفء الأحاديث، وفي غمرة الإنصات إلى صاحب الكلمة، سألني سعد:

- كيف حال من تركتهم؟

- لا بأس.

في مدينتنا، تعوّدت أذاننا سماع «لا بأس»، والتي تمسي أحيانًا كلمة نمطية غرضها الإعراض عن سماع سؤال آخر، ولكنها حين تُقرن بعبارة «الحمد لله» فإن نبرتها تتحول سريعًا إلى الدفء، وتعطي الانطباع حقًا أن الأمر على ما يرام.

عاد الصمت ليغزو المشهد، مشهدٌ كأنه يد قارئ هادئ قلبت صفحة نحو رديفتها، كي يبدأ فصلاً جديدًا من رواية عديدة المشاهد، مختلفة الأوصاف، إن مشهد ركننا النّاعم بهدوئه التام وسط تناثر الغبار في الحي وفي المدينة، يجعل اللبيب يسأل نفسه: ما سرّ الرّكن وما سر صفائه؟ ما سرّ بقاء الغبار بعيدًا عن مضاربه؟

هدوء جعل العم سعد يتنهّد بكل ما أوتي من أريحية، ويترك لنفسه بعد أن حرّك عصاه بعيدًا عن الأرض بشبه شبر قول:

- إنها بركات سيدة من هذه المدينة، من أبناء الحي والمدينة..

ليضيف سرد ما بدا لنا أحجية من الزّمن الجميل:

- لقد حدّثني بهذه القصة الشيخ الوقور سي نور الدّين، غداة حفر أول بئر.

كان صمتنا هو السؤال بمواصلة الحكي، وفي إشارة من عصاه العتيقة نحو صومعة المسجد الرباعية الشكل، الممتدّة نحو السماء بطول يكاد يتراءى لنا بلا يوصف، قال:

- حدثني عن قصة غريبة عجيبة، رافعًا يديه –خلال ذلك– متضرعًا للخالق أن يرحم صاحبة تلك الكرامة، ويجعل من مكان وقوفها (وقد كان) مزارًا للعجائز والمساكين والدراويش..

قبل أن يكمل العم سعد حكايته، فاجأنا سي محمود، الذي كان موفور الصحة والعنفوان أنسياني السنين الخمس والسبعين، بالقول:

- لقد مضى الزمن عليها ولا داعي لإحياء مواجع الحي.

أجاب سعد وقد بدا لنا أنه تقاسم معنا مفاجأة حديث صاحبه:

- بل إنه من الحكمة أن يعرف هذا التّواق للحياة (مشيرًا دون شك إليَّ، مدركًا أن مثل هذه الكلمات باتت من أسطر الماضي) أنه وسط أطيب مكان تمامًا كبعض من أنفاسه، الموروثة من أهل الخير والبركة.

علقت في ذهني عبارات سي سعد الأخيرة، وشدّني فيها لفظة «الموروثة»، أما سي محمود فإنه لم يجب، وساير قول البكر في المجموعة، بقي الإبهام عندي ولكن الزمن قطعه، إذ اقترب مني سي قدّور، منهيًا عبر سؤاله الاستماع:

- ألم يحن وقت عملك؟

إنه سؤالٌ كثير التكرار، ذكّرني بأول بنود اتفاقي مع صاحب المكتبة. وهو يعني في كل الأحوال، أن نترك البقية لمعرفة التفاصيل مباشرة دون شغف السرد أوصناعة شوق الحكاية.

وكان الأمر كذلك، إذ غادرنا الشيخين بعد أن اعتذر قدّور باسمي من العم سعد على قطعه حبل الحديث.

مع مسيرنا الذي تشرف بمباركة العم سعد ومحمود، أخذ الحوار بيننا مسيره السلس بجملة افتتح بها يس قدّور:

- أتعرف يا ولدي..؟

كانت لفظة «ولدي» أهدأ ما في كلماته، معطيًا لي على ما يبدو الشعور بالألفة والأنس، وهو ما شعرت به حقًا عندما أدركت مع الثواني أن ذلك الشخص صاحب البركة، والذي حظي بإعجاب الشيخ سي نور الدّين، والمليئة شفتاه بتلك الطيبة والأريحية ما هو إلا عمّتي، تلك التي لم تعمّر أكثر من خمس وعشرين خريفًا، نعم، إنها عمّتي التي لم أك لأعِيَ سرّ صبرها وقد استوطن الدّاء في كل عرق من جسدها الطّاهر الغض، داءٌ أشبه ما يكون بما أصاب سي محمود، الذي عمّر حتى حكى شطرًا من حكايتها المغرية والمؤلمة.

تحفظ ذاكرتي لتلك القدّيسة بشريط غير مكتمل خلال سني الصبا وما يحيط بها من تعاسة وألم وفقر، لقد عايشت في عمري الباكر صباحات الألم، ومساءات الأنين عبر أنفاس تلك العمة البهية الملاحم القليلة الكلام، لا تزال صورتها وهي في حلّتها الجميلة قبيل أن ترحل عن دنيانا ودنيا مدينتي، متوّجة بابتسامة الرّضا، ابتسامة دار البقاء، مهما بلغت من بلاغة الوصف لن أكون قادرًا –دون شك– أن أستعيد نور وجهها، الحاضر في أعماقي مع كل إشارة إليها كحكاية سي سعد أوسي قدّور وتمسي صورتها حية وهي الغائبة عن غبار الحي، غير أن بلاغة سي قدّور، التي عجزت عن

مجاراتها صوّرت لي تلك الكرامات، التي بعث بأول حرف منها سي سعد، بلاغةً دعتني إلى نسيان إلى أين المسير وما وجهتي التالية؟

قال لي سي قدور وهو يبعث بأنفاس اختزلت الذّكرى والحنين:

- حدث هذا قبيل خمس وثلاثين سنة تقريبًا، بدأ الأمر مع أول صلاة جمعة، إذ كان المصلون في حيّنا وعلى قلّتهم مليؤون بالحركة والشغف لمشهد اكتمال أركان المسجد، الذي حظي بعد طول انتظار بسقف يمنح مريديه ظلاً من الدّعة صيفًا، ودفئًا من قرّ الشتاء وغباره، مرّت الساعات والبهجة تملأ قلوب المؤمنين، لوقوف هذا الصرح القدسي الجميل على قواعد بُنيت من عرق سخاء الفقراء والمعوزين، ويتعالى بهدوء نحو سماء الإيمان دون أن يكون متوجًا بهذه المنارة البادية الآن في عليائه. كان للشيخ نور الدين –وهو الإمام– حضور ووقوف، وكان له على غير عادة فضاءات الحي حديث طويل هذه المرة، زادته مسحة الاحترام المرسومة في وجهه النوراني جلاء ووضوحًا.

في خضم حديث سي قدّور، تراصت أسئلة عديدة في داخلي برغم اضطرابها، وقد امتزجت بشغف السماع كامتزاج غبار المدينة بأصوات بعض ساكنيه، قد يعود اضطرابي إلى مدينتي وأحيائها،

مدينة يتقاذفها الغبار باعثًا إليها وإليّ مرارة الساعات وغموض الأجواء، أما الحي الذي خاصمتني جدرانه وعقول شبابه، فهو الذي يفتقر إلى رحمة السماء وغيثها، وإلى سخاء الأرض وجوف مياهها، لقد شحت الأرض والسماء أن تمدّ للحي قطرة ماء.

أجاب سي قدّور- دون أن يشعر برحلتي- ودون أن يسمع السؤال:

- لم يحمد الكثير من أبناء حيّنا هذا، يا «أخيّ»، بعد صلوات وتضرع البسطاء من أبنائه وأبناء المدينة وكبارها وشيخها الوقور سي نور الدّين اكتمال جامعهم ولا سلسبيل مياهه الجوفية اكتمال جامعهم وانفجار عينه بالماء، إذ لم تمر إلا بضعة أيام حتى بدأت في قلوب بعض الساكنة تتولد صفة من الجشع غريبة، وبدأت تستشري عبر تخزين المياه لآتي الدّهر في كل دار تقريبًا، فتصارعت حول بئره الشحيح بالتدفق الأيادي والسّواعد ليس لنيل الماء فحسب بل في أخذ منبعه، وهكذا تدافعت يا صديقي الأرجل والأقدام من حول «الحاسي» الذي كانت هبة ذهبية طال انتظارها وسط مدينة غُبارية الحي، وما تلبث أن تهدأ ثورة المريدين للبئر من حين إلى حين بعيد حضور الشيخ الجليل سي نور الدين، الذي قال ذات يوم عقب صلاة العصر: [يا عباد الله، وهبنا الله مسجدًا فيه يعبد، وعلى

سفحه أكرمنا بمنبع عذبٍ كي نقوم له بالدّعاء شاكرين ونقوّي بقطراته على الصلاة أبداننا، عسانا على طاعته نقدر وعلى حمده نستطيع، فلا تجعلوا هبة الله هذه تجارة بينكم]، أكمل الشيخ ديباجته تاركًا الجمع من حوله وكأن بأذانهم وقرًا. إذ لم يمض إلا نصف يوم أويكاد حتى اقبل من تخوم المدينة من يرد –ولبهائمه ثانيًا– حاملاً إلى باقي الأحياء ما تبقى بجعبته، بضاعة من ماء زلال.

لم تطاوعني نفسي وأنا أتابع بشغف سير حكاية العم قدّور، في إطالة الصمت دون طرح ما خالجها واللهفة تدفعه:

- يا سي قدّور أين عمتي من قصّتك؟

واصل سرد حكيه دون اكتراث بسؤالي الذي بدا له همسًا، قائلاً:

- بعد أن كان الماء هبة من الله، أمسى بين عشية وضحاها بضاعة رائجة للتجار ممن تعرف وأعرف، وحدّدوا للتر ثمنًا أمام مرأى عيون هذا الحي التي عميت عن رؤية «السرقة»، وهكذا أجبرت الأجساد النّحيلة التي من أجلها رفعت أضرع الدّعاء ومن بينها عمّتك، على الابتعاد عن منبع الماء الزلال، وزاحمتهم أجساد قوية وعضلات مفتولة وأحلام سفيهة.

بعد صمت لحظة، وسط مسير بدا لي طويلاً على شدو الحكاية، أضاف سي قدّور:

- اتعلم أن عمّتك وهبت كل ما تملك من ذهبٍ لترفع أساس هذا المسجد؟

ودون أن ينتظر مني كلمة واحدة، واصل بهدوء وأنفاسه تحملني حكيه الممزوج بالمسير:

- في أحد الأيام، وبالقرب من ركننا، دنت عمّتك، رحمها الله رحمة واسعة، بخطى هادئة وهي وسط حايكها النّاصع البياض، ومن حولها ثلاث نسوة من الحي، واقتربت من أكبر الشباب جثة، وشدّت بقبضة نحيلة تختزن الكثير من الكرامات أحد الدلاء التي يحملها، وقالت بصوت طاغٍ، أبعد أنوثتها إلى داخل حايكها الصافي، وصوّر للشاب رجولة وغلظة: [الا تتق الله في ضعاف حيّك، وتبيع ما وهبنا الله إياه؟]، ما كادت القدّيسة تكمل جملتها، حتى ذهب من وجه الرّجل كرامة الرجال وحلمهم، وطاوعه ساعده – الذي لم يعد يقو على الحراك مذ ساعتها – على إرسال زجره إلى المرأة، كان الشيخ الجليل شاهدًا على آخر فصل مما رأى النّاس، واقترب من البئر، بعد أن بسط جلابيته

للصلاة وقد تناثرت من حولها بقايا دقيق نصيب درويش الحي، واقترب من البئر رافعًا كفّيه إلى السماء، مع اكتمال جلسة الصلاة والدّعاء والتي امتزجت فيها صور لا تكاد تحصى، ساد الصمت أرجاء ما نقف عليه الآن، وتسمّر ذلك الرّجل بعد أن كان مزهوًا بجنون الفتوة والشباب، وبدا أنه أصغر مما كان وتغيرت ملامحه وكأن الضعف والوهن سريا إلى جسده، الذي هوى باعثًا مع لفحة غبار صوتًا ينبئ بالانهيار، تحلق من حول الإمام والمكان جمع كثير، بعدما سمعت النسوة وعلى تاجهن عمّتك دعاء الشيخ وزفراته عقب الصلاة، بعث بيده المباركة إلى همتها سلامًا ودعاء وارتسمت على وجوههن علامات الكبرياء والحبور، وخطى الشيخ خطوتين مبتعدًا عن البئر التي أمست منذ ذاك الحين حنظلاً بعدما كانت عذبة كزمزم.

التفت سي قدّور إليَّ ومع دهشتي أردف:

- قيل أن سي نور الدّين تفل فيها مع آخر دعاء بالقرب منها.
- إذن ما نسمعه عن العين التي كانت بوسط الحي نبأ صحيح، يا سي قدّور؟
- نعم، ومنذ تلك الساعة رحل الشيخ الوقور عن هذا الحي

بعد أن اتكأ على جدار الجامع للحظات، ولم يترك خلفه
إلا مساءات من غبار كثيف، تصاب به العين والقلب، تصل
في كآبتها إلى تغيّر لون السماء من الزرقة أوالبنية إلى
الأحمر القاني، لونٌ للسماء كئيب ينذر باللعنة.

أدركت مغزى قصة، كنت قد سمعت بعض تفاصيلها التائهة
في طفولتي، ومع المسير مع سي قدور استقر في داخلي انطباع بأن
هذا الرّجل يتمتع بموهبة عالية من القص واستحضار المعاني، لا
أدري ما سرّها، يأخذني مع الكلمات إلى طفولة انقضت إلا من
ذكراها، كيف لا وقصص الجدّة ما تزال تتدافع حتى السّاعة عبر
رفوف الذاكرة، انتهى القص ووجدتني كمادتي بعيدًا عن أصدقاء
الركن وعن حيِّه.



عدت مع ساعات الليل، التائهة ثوانيه بين ظلمتين.

ما إن أغلقت باب غرفتي والتّعب يكبّل العيون والجسم معًا، حتى شعرت أن زجاج النّافذة يهتز، تخيلت أن أحد ضيوف الليلة قد فتح إحدى النوافذ المقابلة للغرفة، ولكن ما كدت إنهاء التفكير في سبب الاهتزاز العنيف لزجاج نافذتي المطلة على الحي شمالاً، وعلى المسجد الذي بدا كئيبًا كأنه استحضر رحيل الشيخ الجليل، حتى سمعت هبة ريح عنيفة أبعدتني عن خيالي، وأرجعتني وعيوني التي كبّلها الغبار النّافذ بين الشقوق إلى مرارة المشهد داخل غرفتي، التي لم أقو على فتح نافذتها لكثافة الغبار ولا البقاء في جو معتم تخنقه حبّات الغبار السارية كالدّاء إلى زواياها، لم تمر غير لحظات حتى ازدادت ضراوة ضربات الريح للنافذة، كأن الأمر أمسى عاصفة هوجاء، جعلت الوالدة تبعث إليّ بصوت النجدة:

- انكسر زجاج نافذة الغرفة، تعالى وتولّى الأمر.

غادرت غرفتي الفارغة إلا من أوراقي ومكتبي الغارق في الغبار والأفكار نحو منبع الصوت، مع الأجواء العاصفة المصاحبة للمزاج السيء، ترافقها من حين إلى حين أصوات ونداءات غريبة تفر إلى أذني وأذن الساهرين قسرًا، ما تلبث أن تعرف هويتها، تفك الوالدة سريعًا بصمة الصوت المختلط مع أطفال لخالة أوعمة من الجيران.

مع استمرار زمهرير الريح، المتلهف إلى إرسال غبار الحي إلى العيون وإلى غرفنا، ترافق تنهدات الجزع والخوف من اهتزاز كل شيء. لم تعهد المدينة أن تتزلزل بها، فهي بمنأى من ذلك الهول، غير أن الغبار والرياح المصاحبة له أعطت الانطباع أن الأمر مخيف وأن استمرار هذا الجو العاصف على وتيرته المملوءة بأسوأ الأمزجة وأوحش الظلمة لا يبشر بخير.

زاد الرّعب في الحي بعد سماع انهيار هائل وسط ظلمة الليل وسكونه، كان الأمر أشبه بسقوط ركام من الحجارة على واد سحيق، وما هو في الواقع إلا تآكل الجدار العالي والعتيق المقابل لبيت الشيخ الجليل سي نور الدّين، والذي استسلم لغضب الطبيعة الصارخ، فهوى من عليائه باعثًا بصخور وحجارة كانت منذ نصف قرن ترفع على السواعد والأكتاف، هوى ولم يشر إلى قدمه إلا صوت الصخور المتناثرة.

لم تكد تمضي بعدها ثانية أخرى حتى سمع اهتزاز الشجرة العتيقة وقد كانت تقابل في كبرياء مسجد الحي، تواصل الاهتزاز وعنفه، ووخز الأذان صوته الحاد، وكأن مراحل اقتلاع شجرة الحي العتيقة عبر أيادي الغبّار الغريب، أمست مسموعةً تُنْذِرُ كل فرد في المدينة وليس الحي فحسب، عبر أثيرٍ يملؤه الأنين والخوف.

مضت الثواني التي أعقبت منتصف الليل طويلة طويلة، كأنها لتمدّدها ساعات وساعات.

لم تنفع محاولاتي اليائسة في إغلاق نافذة غرفة المعيشة، التي هيمنت عليها الأم، ورصّت هذه الليلة ضيوفها، إذ غلبتني سطوة الطبيعة وبدا ساعدي وسطها كريشة في مهبّ الريح الحامل بامتعاض لغبّار الحي.

وجدتُني في الأخير مستسلمًا لهذه القوة، وانسحبت من المشهد في صمت تاركًا النافذة وهي بالكاد مشدودة بسلك بالٍ عوّضَ مشدّها.

على متن آمال من الدّعاء وأخرى من التضرع، صمتت الطبيعة القاسية، بعد أن بعثت مع ثلث الليل هذا شيئًا من عقابها، هو في الواقع جزء من التحذير عمّا قد عرف سببه وبطل مع حبّات الغبار عجبه.



استيقظت المدينة مع الصبّاح، ولاح في أفق الحي يوم جديد استحضر فيه ساكنيه ما جرى، ورَبَتْ على ألسنتهم أخباراً وأحاديث، ومع كل همس تزداد التفاصيل إيغالاً في الأساطير، وكأن أجزاءً واقعية تخشى التكشّف. لم تكد تُذكر في متون هذه الأخبار التي ملأتها ساعات الليل بالغبار أن روح الشيخ الجليل علت إلى باريها في يوم مشابه لهذا منذ سنين.

ما هي إلا سويعات على إشراقة شمس الأحد الخريفية في عام «الغبار الأسود» أوهكذا عرف فيما بعد، حتى تناهى إلى مسامع النّاس حداداً على روح درويش الحي الذي تعرفه المدينة، معلنين الخبر المشئوم، فقبيل منتصف الليل، أرسلت أيادي يملؤها الإثم روح الدّرويش إلى السماء في أبشع صورة بدت في تلك الظلمة.



استيقظت بعد الفجر من كابوس أكل أوكاد كل سوائل جبهتي، وجعلها كقطعة ملح جافة، لم أعرف أين المفر في دقائق الصباح الباكر هذه كي أنسى المزاج السيء، لم يكن هناك ما يغري عيون هذا الأربعيني إلا يتيمة الحي، تلك مكتبتي، المأسورة بين كتب وأوراق وكراريس وذكريات كساها غبارٌ غير عادٍ وجدران تفضح الصمت بالأمنيات.

مشيت بخطى تكاد تعرف مهاد الحيّ لأول مرة.

مع سيرٍ بطيء وقوده المجهول المرتسم منذ مدّة في القلب والعقل معًا، أدركت أنه مضى زمن طويل لم أتجول خلاله في المدينة وأحيائها، وكأنى بالذاكرة فقدت كثيرًا من صور المدينة ومعالم الحي، فها أنا كالمفاجأ أشعر أوأكاد بشيء من الغربة بين الزمان والمكان، فكلما أخطو مع بكرة هذا اليوم خطوة أواثنتين على الطريق إلا وتوخزني خلجات من الغربة وأنا في قلب بيت الطفولة، ولولا رياح صباحية تهادت خلسة من حين إلى حين لكنت سأجزم أن الهواء ذاته أصبح غريبًا عن رئتي، اللتان تعوّدتا على الهواء الممزوج بغبار المدينة، كأني بالصفاء المخدوش لم يعد كسابق عهده.

أطلت التجوال ومع انقضاء كل دقيقة تزداد غربتي وتتسارع خطوات حيرتي، مع كل خطوة تتبدّى أسئلةٌ عن الوجوه المجهولة التي

تمرّ من حولي، وللعيون الغريبة عنّي ومن حولي، شباب كثير، هم المحلقة رؤوسهم على جانبي الطّريق، عدت مع اقترابي من مقاهي الحي البعيدة إلى نفسي أسائلها عن هذه العيون المنسوجة داخل الأجساد الشّابة اليافعة، عن تسارع تكاثرها، عن غزوها للطريق العام، لم تجبني هذه النفس إلا بالصمت كالساكن في أعماقي، أوربما تخشى أن تصارحني بالقول: إنك أيها الكهل أصبحت ممن يخشون إلى الوجوه الشابة، تلك التي تذكّرك بأنك في شرخ الكهولة على أبواب أرذل الأعمار.

بدت لي وحدتي في المسير أشد من تلك المقرون بأسر المكان المحتوي لمكتبتي، التي عدت إليها سريعًا ناسيًا أنني زرت كالغريب بعض أحياء مدينتي القديمة، وهي في الواقع قديمة بأسمائها لا غير، فقد تغيرت العديد من معالمها، كيف لا وبعضها مضى على زيارتي له ما يقرب من نصف عمري، عشرون عامًا كانت كفيلة بأن ترسم تضاريس جديدة في الأماكن التي كنت أرتادها غير مرة، وعلى دورها وعلى الكثير من الأصدقاء وقد مضى جلّهم كل في طريق، لم تبق في الذاكرة إلا «أشجان» وقلبها.

عشرون عامًا حقبة عزلتني عن دنياي وعن عالمي، فرقت بيني وبين عمر كنت أعيشه، أوتراءى لي أني أعيشه، جعلت –

غير مكترثة- بيني وبين شطر الشباب الذي كان بين يدي حاجزًا عظيمًا.

لقد مضى ذاك الحب الذي كان يمنّيني، ويرسم لشاطئي الأمان إلى غير رجعة، رحل إلى ضفة أكلت الشباب لترسم في الشيخوخة شيئًا من حياة.

مضت «أشجان» إلى سكون فرنسا، وتركت هذا الوحيد، على نار وقودها التأسي والخذلان، مضت تلك البهية التي طالما رسمت على شفاه شاب عشريني بسمة لم يكن ليدرك سرّها أي بشر، مضت دون أن تلقي السلام، لم تكن تدرك ربما سرّ السلام.

عرفتها في دفاتري، في كتبي، في ساعات الاستراحة مع صباح ثانويتنا الوحيدة في الحيّ.

عرفتها ولم أعرفها، عرفتها حوّاء هذا الآدمي، لم أعرف أنها مسافرة، وفي حقيبتها في يوم مولدي كل الذّكريات إلاي.

سافرت «أشجان» وتركت أشجانًا في أعماقي، لا تزال تراودني صورها على مدى سنوات عديدة.

عشرون عامًا هي الأسر والظلمة، أسر الأحلام الضائعة، وظلمة الآمال المسافرة مع «أشجان» والباقية مع الأشجان، ظلمة

طالت في سني شبابي لولا أولئك الثلاثة، أولئك هم النّور الذي سرت إليه ولا أزال، كهذا المساء، وهم وحدهم من جمعوا رفات هذا الأربعيني المتيم بالمجهول، والمحبّ منذ سنين لأطياف ليست إلا أضغاث أحلام.

سأزور ركن الأجيال اليوم، وشيء كبير استيقظ في النفس مع استحضار مدينتي وحيّنا، وغياب الغبار عن ذكرياتها الآن.

كلما نسيت استحضار غبار مدينتي، استفاقت سريعًا ذكرياتي و«أشجان»، ولفرط التّكرار كأن بصورتها في غلاف الذكريات بقايا ميّتة لورق الخريف، تتناثر بين أوراق أخرى صفراء وحمراء يكاد الريح والغبار يمحوان عنها وهج الطبيعة، ورقة رحلت مثلها إلى مكان آخر، تمامًا كرحيل آخر نسخة لصورتها الورقية، رحلت من بين أغراضي آخر صورة لفرح إلى غير رجعة، في لحظة من غضب الشتاء، إن شتاء مدينتي يطرد الأفراح ويوقظ الأشجان، ويوقظ معها ثورة الحب الكامن في رفّ الذكريات، ويُلهب كل صمت، ويضرم بعود من أساه كل ركن من الذّاكرة نارًا للغياب وللنسيان وللعبث.

لم أبع اليوم، في مكتبتي، وكالعادة إلا النزر اليسير من كراريس (٩٦ص) المطلوبة هذه الأيام، لا أدري ما السر في ذلك؟

مع آخر كرّاسة أبيعها يطاردني الشوق لـ سعد ومحمود.

غاب قدّور عن مشهد الشوق هذا لا أدري لم.

لم أكد أر السّحاب وهو يتلاعب على كفيّ السماء والشمس بالكاد تتبدّى بينها حتى وجدت خطاي تقترب سريعًا من الرّكن المسائي، لم أجد ضمن لفيف المسنين إلا قدّور، سلّمت عليه ومع الوقوف سألته عن غياب البقية لهذه الأمسية، أجابني:

- سوف يعودون بعد قليل.

أخذني الفضول أن أبعث سؤالاً مستفزًا:

- يبدو أنك متأكد من رجوعهم السريع؟

- نعم.

وأضاف مازجًا ابتسامة لطيفة بأخرى لا مبالية:

- اجلس واسمع.. لأنني مثلك مجبول على الفضول.

أخذت مكاني مستمعًا لقدّور، وعلى هذا البدن المتعب بذلة لازالت تحتفظ بشيء من أناقتها على الرغم من قدمها:

- الجماعة يا سيدي راحوا «لتعظيم الأجر»[1] في وفاة درويش الحي، زغلول.

١- واجب العزاء وهي لفظة منتشرة بوسط بالجزائر.

علت العيون والشفاه شبه مفاجأة، وإلى الذهن راح سؤال الاستغراب يدوي في ركن الأجيال:

- سعد زغلول؟

كان سعد زغلول من أشهر دراويش المدينة والحي، وكان - لبساطته- محبًا لـ سعد باشا زغلول قائد ثورة ١٩ المشهورة في مصر دون أن يرتبط ذلك بوعي سياسي كبير، وكم كان شغوفًا بسماع أمواج الأثير، من «صوت القاهرة» بالأخص عبر جهازٍ للراديو صغير، يختصر بالنسبة إليه كل العالم.

كان زغلول الحي من حفظة كتاب الله، وكان مِنْ أشد مَنْ في المدينة محبّة للفن والموسيقى، كان رغم شطحات الدروشة، وسُكر السفر بعيدًا عن الواقع، وعبثية الضياع مولعًا بالطرب والأغاني، كان مولعًا بفيروز تلك الملهمة لأحلام الشباب العربي في حقبة الرومانسية، كان يقول كالكثيرين أنها صوتٌ ملائكي، أنها تذكّره بكل وجوه المدينة الأنثوية.

قال لي عنها ذات مرة:

- لولا فيروز لأحببت الصمت... لا صوتًا يشبهها.

كان زغلول عاشقًا لفيروز، ولصوتها مُريدًا.

لم يكد قدّور ينهي حديثه، حتى انهمرت رغمًا عنّي دمعة في كفّ الأسى عن رحيل أيقونة الحي، وكأني بغبار تلك الليلة الممزوج بالريح العاصفة ما هو إلا نعي لهذا الرّحيل، وتعبير حزين من الطبيعة لفقدها لمخلوق مثلها، محبًّا للجمال وللحياة، كارهًا للصمت وللكآبة، لازلت أذكر جملته المشهورة عندما كان يطلب منّي -لا غير- سيجارة، بلغة فرنسية:

- سيغاريت؟

لقد أرسل سي قدّور عبر سرده للواقعة طعنة للحياة ولي، وحين قال:

- لقد طعنه أحد السباب مع الفجر.

انتشر الخبر من حول فضاء المكان، راسمًا صمتًا كئيبًا، وشكلاً من العبثية غريبًا، ومعنى فظيعًا لوحشية الإنسان أمام أخيه الإنسان، صمت كل شيء في هذا المكان، ولم يحرك الهواء المنتشر حوله إلا تحية انبعثت من أحد الوافدين:

- السلام عليكم... كيف حال الشّبيبة؟

بعث سي سعد بهذه الكلمات، وكأني ببصمة الصوت لا توحي أن صاحبها كان في مأتم.



لم أعِ بما جرى حولي من تباين بين المشاعر عند سي سعد، وما سر ذلك السرور الدّاخلي لشيخ الجلساء؟

ولكن حين ختم حديث الأصدقاء، تلاشت غيمة السؤال بوليمة استدعينا إليها، بمناسبة تزويج سي سعد ابنته الوحيدة لرجل طالما فتن الحي بأخلاقه ووقاره.

لم تكن من عادتي أن أحضر ولائم الأعراس ولا غير الأعراس، وتكاد تُعدّ المرات التي استجبت فيها لاستضافة جار أوصديق، وأنا مدين في هذا الأمر للوالد، فهو -بحكم البقاء معه تحت سقف العائلة- واجهتها وواجهة يستجيب -متفضلاً- لنداء الواجب الاجتماعي المكسو بكثير من مغريات «الكسكسي» المتوّج بقطعة محترمة من لحم الضأن المزدان صحنه بمرق شهي الرّائحة والطعم.

حين دعاني وبقية الرفاق سي سعد إلى وليمته، استحضرت فقيد الحي سعد زغلول الذي كان يأتي إلى بيوت من يعرف من أهل المدينة والحي عند كل مناسبة، وكأنهم يستأنسون به وبخطواته، كما أنه -ببراءة الدروشة- يحب الاقتراب في الجلوس من جوار كل تلك الوجوه المختلفة، التي لا تلبث أن تنسى أمره بمجرد أخذ نصيبها من المكان ومن الصحن ومن سهم سعد زغلول، لم يكن زغلول ممن يشتهون الأكل كثيرًا، فهو مدخّن من طراز عجيب غريب، قيل

أن محبة أمثاله للتدخين مقرون برغبة الهروب من هوس الكلام وضيقه إلى هالة الصمت وعوالم التأمل المتصاعدة تفاصيله مع كل خيط من سيجارة «النّسيم»[2]، التي يرتشف كل نفس منها بشراهة لا يضاهيها غير عدد الملاعق التي تعرف طريقها إلى جوف كل ضيف، وهي محشوة بحبّات الكسكسي وشذرات اللحم في صالات الاستضافة بمناسبة وبدونها.



٢- نوع من السجائر ما زال حتى الساعة ينتج في الجزائر.

- كان عشاءً لذيذاً؟

هكذا أبدى سي قدّور معمّمًا بالسواد كبير إعجابه عن تلك اللمسة اللذيذة لعشاء سي سعد الشهي، وكأنه – وهو يختصر وصف ذلك الطّعم عبر جمل امتزج فيها الإعجاب والأسئلة– يعبّر عن حالتي، ولكنني على عكسه، كنت أشعر وأنا وسط الضيوف بوحدة عجيبة مردّها على الأرجح خوفي من الأسئلة التي ترويها الوالدة لي كل مساء، ينتابني الشعور أنني أخفي عن الغير إعاقتي، إعاقة الخوف من السؤال إعاقة الحب الغائب.

تهادى إلى مسمعي:

- لم لا يختار كريمة جليسه الدّائم (مشيرًا إلى سي قدّور).

انشغلت عن الهمس والسؤال بما بين يدي؟

يراودني، كلما عدت من صحبة الرفاق، هاجس القلق من تكرار الوالدة أسئلتها، وما تراه سيكون جوابي لها، وهي ترى أن زواجي هو الحل الكوني، ومن ورائها والد كسته حياة الرتابة بعد أن توسط الشيخوخة القاسية مع «شهرية» أقل مني حيلة تأتيه مع قرن كل شهر.

لقد واجهتني الليلة، وكسرت بذلك آخر حاجز من التحفظ:

- إنك في الأربعين ألا تدرك ذلك؟

ولكي لا تخدش ما تبقى من إنسانيتي، أضافت بألفة وحزن:

- ننتظر منك أحفادًا..

ربما غاب عن الأم أن صاحب الأربعين هو من القلائل من يدرك أن رفيقة العمر هي شيء من الحلم وأنها غاية في حدّ ذاتها، وأن مسألة السن هاجسه الكبير وإن أخفى عن الجميع ذلك.

أنها لا تدرك على ما يبدو أنني الأوحد -ربما- من هو أربعيني دون زواج، في بيئة الزواج في شرط لولوج المجتمع، تتناسى أحيانًا أن هاجس تأخر زواجي في هذا البيت قد تخطّى عتبة الإنجاز الاجتماعي الموعود ليمسي حالة مرضية، قد تصيب لعنتها كل الأسرة إن بقيت هناك أسرة.

لقد مضى حلم الزواج وراح مع «أشجان»، وصمتَ الحب مع رحيلها. المؤلم كل الألم أن لا الأم ولا أحدًا من الحي وأبنائه يدرك ذلك، حتى أولئك الرّفاق لا يدركون سرّ صديقهم الأربعيني سرّ انتظار الأمل المفقود. حتى فرح نفسها لو عادت خطواتها -كما في ماضي المسير الدّراسي- إلى الحي لما استطاعت أن تستشعر كل شغفي المصاب صاحبه بداء السر والكتمان، سرٌّ لم يتمكن حتى قدّور من «استبطانه»، عبر أسئلته المشفوعة بأسلوب المخبرين، وهم كثرٌ في هذه المدينة، إن قدّور لازال تحت وقع سحر ذلك الصحن من الكسكسي وهو يردّد بشيء من الدعابة:

- ألم يئن بعد أن تستضيفنا على مثل هذه التحفة الغذائية في بيت الزوجية؟

وأرسل ابتسامات، اختصرت شبعه وولعه بالحكي، وحاول على ما يبدو زرع شيء من السرور على قلبي الموجوع، يستشعر هذا القلب أن رابطًا ما يربطني بسي قدّور، لا يعلم كنهه إلا كفّ القدر.

حاولت أن أستغل لحظات البهجة المرتسمة ملامحه ووجدانه وجرّه إلى حديث طالما كان عصيًا عليّ وعليه.

منذ قرابة السنتين لاحظت ولاحظ الشيخان تغيّر مزاج قدّور كلما تحدّث الجمع عن تعدّد الزوجات، وكأن الموضوع يثير في نفسه الكثير من الخدوش، الواقع أنني الأوحد من بين الأصدقاء الذي ليس له الحق في الحديث عن خدش النفسيات، ولا عن الالتزام الاجتماعي، فأنا الكهل العازب الغائب عن مسرح الحياة والقابع بين غبار الذكريات السنين وغبار المدينة.

لم أدع اللحظة تمر دون إرسال سؤالي:

- حدّثني عن قصّتك يا سي قدّور؟.

- خرجت إلى الفضاء تنهدات، رافقها صمت ثم نبرة مليئة بالحب:

- أتقصد قصّتي مع المرأة؟

كان صمتي هو الجواب، واصل سي قدور ديباجة الحكي:

- قصتي أيها الشّاب طويلة وغريبة..

أرسلتني لفظة الشاب إلى حقبة الثانوية، تلك التي كانت الوحيدة في المدينة والحي، وواصل الرجل حديثه:

- أنا الآن متزوج بامرأة لا يربطني بها إلا عقد ووليمة كهذه.

اندهاشي من الجواب لم يمنعنِ من متابعة سماع قصته وهو يواصل:

- لا تستغرب إن قلت لك أن هذه الزيجة كانت من أندر وأغرب الزيجات، وقد تمتّ بعد إصرار الوالدة عليها، بالرغم أنها لم تشهد زفافنا، إذ توفاها الله قبيل عرسنا بأشهر.

تلاشت خيوط الحيرة والسؤال من أمامي، بعد أن بدأ الستيني بسرد حكايته:

- منذ خمسة عشر سنة كانت لي خطيبة من مدينتي، وكانت من أحب القلوب وبدت في عيني من أجمل نساء الدّنيا، هي ذلك الدّفء الذي صحبته طويلاً، ووقفت على باب آماله، وعانيت الساعات للرحيل به من دار العائلة إلى دار

السكنى، خطيبةٌ دافعت عن اختياري لها، ودفعت ثمنه ليال من الوقوف على باب الصمت، حينما كانت الأم –رحمها الله– تبعث عليّ بوابل اللعنات لسوء الاختيار وتعاسة حال الشريكة، قاومت بصمت وصبر كبيرين تلك القيود المغلّفة بحديث الوالدة في ساعات النهار الطويلة ودقائق الليل المتناهية الظلمة.

لم أعِ إلا وسؤال يفرّ مني نحو أذن الرجل، وسط حالة من متعة الحكي والسماع:

- أهي زوجتك، التي تقاسمك الآن أعباء الحياة؟

- لا، ليست هي، لقد طالت مدة خطبتنا ولم أجد بدًا من طول الانتظار إلا الذهاب بأمري إلى مداه، وكم تحايلت على الوالدة مرارًا القبول، غير أنها حملت في وجهي وفي وجه الغريبة، كلما فاتحتها أوفاتحتني في الأمر لافتة اللعنة، تجرأت في آخر الأمر وذهبت بمفردي لإنهاء ما بدأته. وما هي إلا ساعات حتى جنّ الليل ووجدتني حاملاً خطاي دون الرّحم إلى بيتها وفي قلبي قراري وآمالها في إكمال العقد الأسري، وبالفعل أنهيت أمر زواجي دون حضور أحد من مقربيّ إلا واحدًا ممن ترى من الرّفاق.

- أيهما تقصد؟

قبل أن يجيبني أرسل إليَّ بنظرة فيها شيء من الحيرة لم أعهدها من هذا الكهل الحساس:

- لم يكن بمقدوري أن أصحب سي سعد؟ إذ لم تكن علاقتي به ساعتها كما هي الآن، ربما أنت عرفته قبلي، فبرغم فتوتك فأنت الأسبق مني، كما أنك درة المجموعة، وهذه الكلمة قالها سي محمود عنك، وهو ذاته من صحبني إلى بيت الزوجة الأولى..

- تزوجتها إذاً؟

صمت سي قدّور، واستدار نحو وجهته تاركًا لي إبهامًا خلّفته خطواته التي أرسلت قوله:

- سوف تجد عند سي قدّور جوابًا لما سألت.



مرّ على هذا الحديث أشهرٌ، ومعه مرّت ذكرى سعد زغلول ومصير من أوقع به الجريمة مرور الكرام، وكأن لعنة الغبار تلك هي الملمح الوحيد الذي خلّفته تلك الذكرى المؤلمة.

تواصلت الأيام في المسير وتواصلت معها رفقة الأصدقاء، وتواصلت جلساتي معهم في ركن الأجيال عند كل مساء تقريبًا، ومضت علينا الصباحات رتيبة أوبالكاد، أما الأمسيات فلا تكاد تمضي لحظات منها إلا وامتزج وجه الشمس النائم على أفقها بأشعتها المسرعة نحو الغياب بغبارٍ تزداد كثافته طغيانًا مع نهاية كل أسبوع.

مكتبتي اليوم على حالها كدار لقمان، ولكنها مع المساء تمتّعت بشيء من الحبور مثلي، فقد حزت شيئًا من الكتب كعادة فاعل الخير مع نهاية كل شهر، ومعه حملني السرور إلى أوّجِه بعد أن استحضرت قصة سي قدّور، أنستني على ما يبدو في حالي وحل الوحدة الأربعينية، وها هو المسير والخطى يأخذاني إلى ركن الأجيال.

قبل الوصول إلى «المَقَامْ»[٣]، التقيت سي محمود ودعاني على غير العادة على أخذ فنجان قهوة، جلس والضحك يكاد يأخذ منه

٣- لفظة صوفية شعبية محلية، تعني مكان وجود الولي الصالح وبركة مكانه.

كل مأخذ، ويُبعد عنه وعني نظرة الجِد والوقار التي ترسّخت في الذاكرة.

قبل أن أرتشف من فنجان قهوته رشفة سريعة، عاجلته بالسؤال:

- يا سي محمود أضحك الله سنّك، ضحكّني معك.. ما الأمر؟

- بالأمس وقبيل صلاة الجمعة، وقع لي أمر مخجل وضحك، بالأمس وأنا ألاعب ابن أخي الأصغر، تذكرت مستحضرًا حقبة هي الأجمل في حياتي، وكلما شاهدت خطواته إلا وعادت بي إلى طفولتي التي مضى عليها أكثر من ستّين عامًا، ومع مشاهدتي له وللعبه، استحضرت مشهد الرّقصة التي كنت أحبها.

صمتّ كأني به يسمع السّؤال:

- الرقصة؟

- نعم يا إخوان، مشهد رقصة الفتى دعاني إلى الولوج إلى ذاكرتي، ورحت غير واعٍ وقمت بالرقصة نفسها أمام مرأى العالم.

وانفجر ضاحكًا، مجددًا القول:

- صدّقوني... غير واعٍ، قمت بالرقصة وسط الحي، وبدا لي (وهو الأجمل في المشهد كله) أن الوحيد الذي يراقبني هو سي عطية، وهو في طريقه إلى بيت الله حاملاً في يديه درس اليوم، وفي عينيه -على ما بدا لي- خجلي، اقتربت منه، وكان -كما تعرفون- المزيج من التبرير الذي يربو مع تحية السلام، ولكن الشيخ الوقور، ورغم أنه يصغرني سنًا، ضحك ضحكة عذبة قائلاً لي: [والله إنك ذكّرتني بمشهدك هذا بما حدث لشيخي ومعلّمي].

أخذني الفضول لمشاركته الحكي، ولكن سي محمود لم يترك لي فرصة، وكأنه ينافس صديقنا قدّور في هذه الملكة المشهودة:

- سألت سي عطية، وهو يأخذ بيدي كأنه يجرني إلى الصلاة، ولم يعهد مني كثير حديث أوكبير نقاش، فأجاب: [يا سي محمود، إن شيخي يحمل اسمك، وهو للمفارقة ضمن درسيَ اليوم، فاقترب ولا تعش لحظة الإحراج تلك]، وأطلق الشيخ بعدها بسمة تكاد تشابه ابتسامات الطّفولة.

لم يكن سي محمود في حاجة إلى شرحٍ مطوّل لما جرى، ذلك أننا جُمعنا في وسط المسجد تلك الجمعة، وأذكر جيدًا القصة التي

سردها إمامنا سي عطية والتي جعلت أغلب المصلّين في مشهد غريب بين لجم ضحكاتهم أوالاستسلام لها.

قص شيخ المسجد في لحظة الترويح عن المريدين حكاية شيخه ورقصته الشهيرة، نعم، كنت حينها ضمن الحاضرين، وتخيلت فعلاً صورة الشيخ الذي جاء إمام الحي سي عطية على قصّته، حينما بدأ ينط في خلوته، التي كانت ركنًا للعبادة والذّكر وقراءة القرآن، وتصفح خير كتب الأنام والناس نيام.

قال الإمام:

نعم، أيها الإخوة، رقص الشيخ الوقور، واعترف أمام سائله الذي دنا من غرفته في ثلث الليل الأخير، مصدومًا لمشهد الرّقص تحت سراج الغرفة وخلوتها، وكان جواب الشيخ حينها للسائل (وبالتأكيد للمصلين ممن يرقبون القصة ونهايتها):

- سألتني كيف بالشيخ وهو في هذا السن وتلك المكانة أن يرقص؟
- ننعم.
- أتعلم أنني كنت في قمة السّرور وأعلى مراتب الحبور؟
- كيف ذلك يا سيدي؟

- لأنني رأيت في تلك السّاعة أن القرآن بين يدي، وساءلت نفسي من أرسله، فردّ صدى نفسي عليَّ إنه الله، ثم حملت يدي وهما تذكران وتسبّحان وقلت من خلقهما، فكان الجواب هو الله، ونهضت واستقمت وسألت من سيقبض هذه الروح ويبعث هذا الجسد من التراب فكان القول دون كلل هو الله، وجدتني وأنا أستقيم طولاً أردّد: لم الخشية على حال جسدٍ يرقبه الله؟ ولم العبوس وقلبي ينبض لله؟ ولم التفكير في آت هو لله... فحملني سروري الغامر وغبطتي الكبيرة وأنا أشعر بقرب الله أن أنط من السرور كي أبلغ عنان السماء شاكرًا ربّ السماء، ولم أشعر وأنا في غمرة ساعة الصفاء والرضا إلا والرقص تعبيري، فمررت بي يا أخي، فبدا لك المشهد كما رأيت... وختم الشيخ وقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟



مرت جمعٌ وأسبات وآحاد على تلك القصة المعبّرة وعلى رقصة سي محمود، والتقيته بعدها في إحداها، ووجدت اللحظة سانحة أن أسأله عن قصة صديقنا قدّور وخطيبته.

قدور الأصغر في المجموعة، والمدلل فيمن عرفت من هؤلاء المختلفين عن باقي أهل الحي، لاستقلالهم عن أغلال الجموع وتحرّرهم من قيود الحي وغباره، وسط الحدود الضيقة لهذا الدلال، أجدني بعيدًا عن ميراثهم وعمّا حفلت به تجربة حياتهم، أراني وسطهم كائنًا غريبًا كغربتي وجسدي على تخوم الحي الملتحف غبارًا على الدّوام، والجالب لوعيد الصالحين.

مع الخطوات أخذ حديثي ومحمود مجراه منسابًا، وأرسلت له مقدمة عما جاء من أحاديث قدور لي، وعن غريب قصته وإبهام ظروفها، بادرته بالسؤال:

- أتعرف شيئًا عن سي قدور وخطيبته؟

أجابني مع شيء من الاستغراب:

- نعم.

- ما قصّتهما؟

- إن المؤلم في القصة أن سي قدور كان للأم مجيبًا، ولاختياره

زاهدًا.

- لم أفهم.

- لم يتزوج من اختارها، لقد أُكره كحال الكثيرين ممن تعرف وأعرف، والجهل المكتسي بالعرف هو باب الاختيار لا الطاعة.

زاد فضولي، واختصره السؤال:

- ما الذي جرى له بالضبط؟

- لقد تمّ زواجه الأول من اختيارٍ ثانٍ، كانت الأم هي الخاطبة لا الابن، لقد انتهى الأمر كله في جلسة واحدة.

ومع شهيق امتصت معه رئتا سي محمود شيئًا غير هيّن من هواء المكان الخالي -على غير العادة- من الغبار، أضاف:

- ما حزّ في نفسي، أنني كنت رفيقه قبيل ما جرى حين أراد إتمام الأمر مع من اختار.

- ما كانت نهاية الأمر؟

- كانت الفاجعة.

هكذا لخّص سي محمود ما جرى لقدور.



بدأت فاجعة الصديق بُعَيْد عودة الزوجة، تلك التي كانت درّة اختيار الوالدة، من بيتها بعد «ردّ السّبوع»[4] لقيت المسكينة حتفها في الطريق المبلّل جرّاء سيول موسم الخريف الأولى، لقد رحلت عن الدنيا وهي تتأبط في طريق البقاء الأخ الأصغر.

أطبق الصمت على كلينا، ورحت كالغريق أموج في أحاديث الفواجع، ووجدتني أبحث عن فضاء غير الصمت طوال ما تبقى من مسير، وعبثًا كنت أفعل، حتى توقفت بي الخطى عند باب سي محمود، والذي بدا له هذا الأربعيني في أتعس حال حين قال:

- دعك من حديثي وفكّر بنفسك، إن لـ قدور برغم هول ما جرى له بيتٌ يؤويه، ونفسٌ يسكن إليها.

لم يستضفني سي محمود على فنجان القهوة، كعادته كلما مررت بالقرب من داره.

عبر جوابه الأخير الذي استعضت به عن القهوة، أدركت أن اللّوم والعتاب لن يتركاني، سواء في البيت عند الأم أوخارجها عند أقرب ناس الحي إلى القلب والعقل.

تساءلت مع النسق الرتيب للخطوات المتعبة: لم أراد قدّور أن أسمع الباقي من لسان سي محمود؟

٤- من الزواج ، تعود إلى بيت الزوجية محملة بالهدايا تعبيرًا عن الود والمحبة بين العائلتين.

رجعت إلى البيت على أمل أن آخذ قسطًا من الرّاحة بعد تعب السير وعناء التفكير، ولكن، لم أكد أخطو خطوة نحو وحدتي وإبهامي حتى تغيّر الجو وتلبّد، وكست الفيوم الأجواء وكأن بقوة غريبة جعلتها كذلك في لمح البصر، وراح العالم من حولي يتحول دون سابق إنذار إلى طلاسم غبارية، تنشر رذاذًا من الحصى لا يكاد يعرف منتهاه، وزاد مشهد إقفال النوافذ السريع بصري دهشة وتشتتًا، على الرغم من الحرّ القاتل الذي دعا القيلولة المصلوبة بالرمضاء تدنو بأسرع مما توقعت.

يا له من عذاب حرّ لافح يقتل الجلد الصّبور، وغبار كئيب منتشٍ بحصى متمردة على حال الفيزياء، ونوافذ تحجب عن ساكنيها شيئًا مما تبقى من حياة، إنها اللعنة دون شك.

مشيت بالكاد أملك جسدي والحال على ما هو عليه، ولازمة الدّعاء والرّجاء ترثي لحالي بسماعها قولي: لا حول ولا قوّة إلا بالله...

حملت قلمي محاولاً أن أفرغ شحنة الإرهاق الجسدي والنفسي، التي هيمنت عليّ مذ عودتي، لاحظت أن الجو المنزلي مكهربٌ وأن شيئًا ما يدور في كواليس هذا البيت الشعبي، وعلى رأس الهرم الوالدة بلا شك.

تركت القلم على سجيته، وكأنني عبره أجدّد لصاحبة الرسالة الصحبة من جديد:

(أكتب إليك هذه الساعة، دون أن أبدأ بالتحية.

أنا متعبٌ الليلة، ولم أفر إلى القلم بخطى الطفولة إلا إليك، وإلا لفراري من الحديث إلى سواك.

تكرّر الحديث، وتكررت الشكوى ولم يعد هناك داعٍ إلى إقناع من هم حولي، تعبت آمالي وأُرهقت دواخلي وسرى -وحال الضياع هكذا- مع كل شريان عجز وقصور.

أدرك أنك قد لا تطيقي أسطري وما تحمله من يأس وضياع وكثير من غموض، ولكنك -أيتها الأنثى- تدركين حاجة أربعيني مثلي إلى إسكات صوت الأبوين وصوت غير الأبوين، إنني برغم العمر الذي انقضى، مما انقضى، ما زلت في عيونهم الحافظة لشيء من آمال الحياة ذلك الطفل الباحث عن الحياة، لا زلت أراهما بعيني الطفولة، المليئتان بالوجل.

واعٍ أنا بكل ما يدور حولي، والهمسات منه، واعٍ بأن ما ضاع من العمر كان إسرافًا، واعٍ بأن الأبوين كانا ينتظران دخلاً قارًا، ويدًا تفي بالغرض المنزلي وعلى ظهرها طفل يحفظ الحبل السلالي.

لا أجد المفر...)

لم تسعفني يدي على إكمال بث شكواي إليّ، لم أستطع أن أواصل سيل الحديث إلى ذاتي المتألمة.

استيقظت أعماقي فجأة واستهجنت هذا الجلّد النفسي، وهذه السادية الفكرية، وانطلقت من أعماقها جملة واحد:

- كفى، ارم الأوراق.

لم تك هذه الجملة الوحيدة ما دعتني إلى شيء من اليقظة، إذ ها هي أصوات سعد وقدور ومحمود تتواتر إلي اليوم، وكأنها أرواح استحضرت اليقين والتطهير وهم يقولون:

- ارجع إلى واقعك وواقعنا، ودع الأم تختار ما تشاء، وانسى عاهة الانتظار النائمة على ذكرى «فرحٍ» بائد.

استيقظت فجأة على واقع بدا لي مزيجًا من حلم وكابوس.

هكذا عدت إلى رشدي، ورأيتني أحمل كومة الرسائل تلك، محاولاً -كأول مرة- أن أحرقها وأحرق معها شيئًا غير يسير من معاناة نفسية، قد لا تكون هي منبع الوحدة ولهيبها.

ما كدت أغادر غرفتي، وفي يدي أحرف ومشاعر وذكريات

مدفونة كلها في تلك الرسائل، حتى استوقفتني الوالدة بملامح امتزجت -مع تعبها الدّائم- بشيء من الحيرة والقلق والضياع، قائلة لي:

- لقد خيّرك والدك بين أمرين.

وقبل أن تنهي حديثها، ذهب بي التفكير بعيدًا وعن الدّار ومن بالدّار، وعن فجأة الحديث وفجأة الوعيد، ولما آل إليه الأمر كله:

- إما أن تعجّل في الاختيار أو..

لم تُطق الأم أن تسترسل في باقي الحديث، ولم يك بوسعها أن تنطق بعدها بكلمة، وراحت تجر جسدها المتعب بخطى وقودها الدّموع الخفية، المملوءة مثلي بصوت بحٍ منكسر، وأمست الجملة وحرف «أو» تحمل وعيد «الرّحيل».

لم أستطع وحال الحي هكذا، والمدينة مليئة بالغبار وذهني يغزوه التشويش أن أنبز ببنت شفا، وساءلت نفسي باعثًا للمجهولة سؤالاً:

- أين أنت الآن؟ بل أين أنا؟

استحضرت حال قدّور ووعيد والدته، كيف تراه كان شعوره ساعة الوحدة تلك، وهو يقلّب الأيام بين كفيّ المخرج والمجهول؟

لم يسبق أن غادرت البيت إلا في ساعات النهار، أما في ساعة الليل فهذا هو المحال بعينه، منذ أن وعيت لم أذكر أنه سمح لي أن أطأ الباب للخروج بُعَيْد المغرب، لم يكن الوالد منذ وعيت إلا آلة من انتظام الوقت وصرامة المواعيد، لم يتعوّد أي فرد من الأسرة الكبيرة، وأكثرهم أنا إلا على الولوج باكرًا إلى المأوى الأسري، وكذا الاستيقاظ باكرًا، كنت ولا زلت مبرمجًا على البيت وأركانه لا على المسير في المدينة وبين أحيائها.

لم أستطع بُعيد سماعي للوالدة أن أعود إلى غرفتي، كرامة الكهولة فعلت فعلها، وجدتني أترك البيت ومعه الأسطر ومفاتيحي وبعض أغراضي.

خرجت على لحن «ليلى والمجنون» هائمًا من بيت اعتاد السكون، بيت يملؤه الدفء برغم برودة العلاقة بين أفراده، برودة جعلت مني كحال طوب هذا الحي وحجره ساكنًا غريبًا، يكاد كل ليلة ينال نصيبه من الغبار.

سرت إلى غير هدى، فلم أجد إلا أن أزور ركننا ذاك في ساعة غريبة وشعور أغرب، إذ هي أول زيارة ليلية لركن الأجيال بُعيد عشر سنين من التردد عليه نهارًا.



ركن الأجيال

رافقتني في لحظات هذه الليلة المختلفة جلابيتي وقد رافقتني فيما مضى في لحظات من النسيان.

ما إن وصلت وأنا أحمل ما أحمل، حتى غادر التّعب هذا الجسد، ووجدت العيون تستسلم بخطى يحملها الحياء والهدوء إلى النوم وعوالمه، كأني بذلك الجو الغائم الممزوج بهالة الغبار خيطًا سرابيًا من لحن هادئ يطارده الصمت وقد استحت على غفلة منه نسمات لم أعِ بعد أي فصلٍ أرسلها، رحت كالغاوي إلى سكرته في ساعات الليل أرنو إلى أطول وقت للنوم علّني أسترق راحة من الدنيا وما تحمل.

رحلت بي وبجلابيتي السمراء غفوة ركن الأجيال، وحملني الليل منسلاً في بردته إلى غايته على عتبات صوت المؤذن وهو يصدح:

«الصلاة خير من النوم»

استفقت ومشيت بخطى الوقار إلى المسجد المحاذي للركن.

قضيت الصلاة ومعها سافرت الكثير من الصور التي كانت عالقة في حافة الذاكرة إلى عالم من الدّعة والسكون إلى حين، صور تستلقي على تاجها تلك العيون، التي رمقت بها الوالدة كل كياني.

الوالدة، النائمة الآن أوريما ترقب النّجوم كعادتها علّها تستريح معها على صفيح السؤال والشك وقلة ذات اليد، أراها لا تعرف النوم، إنها والدة غير أنها ليست ككل الوالدات، عرفتها كما لم أعرف أي أنثى. عرفتها من صباي وشبابي وبوّابات الكهولة ولم تتغير نظراتها ولا بريق عينيها كلما وطأت البوابة.

- هل عدت إلى السيجارة؟

هزني سؤال قدور، ولم أعرف من أي ركن ولج، ولا كيف اقتنيت تلك السيجارة ومن أي كشك، بل كم مضى من الزمن، وما الزمن الفاصل بين من تلك الصلاة إلى رشفة السيجارة المحتشمة هذه.

حملتني كلمات قدور واحتضنتني كل همسة منها، كأنه لم يحمل عني عبء تعبي، بل لكأنه وهو يستضيفني يهم بحمل هذا الجسد المتعب، جسدٌ ارتسمت فيه كل خرائط الأحزان.

مشيت رفقته والحياء يغلّفني.

ماذا تراني سأقول له، وكيف لي أن ألج إلى بيت الرّجل، رفقة أسرته الصغيرة وهو معتاد على كثير الدّعة والهدوء، لم يسبق لي أن وطأت هذا البيت من قبل، إنه عبء كبير على عاتق رجل مثلي أن يدخل إلى بيت أحد رفقته في ظرف مثل هذا، وفي حال كالتي أنا عليها.

ماذا تراني سأقول له، ولم تكن عادتي أن أفاتحه في أمر ما بيني وبين الوالد إلا لمامًا، غير أني سأجبر على الحديث إليه، وقد استضافني في بيته، في لحظات لن أجد فيها غير جدرانه لتؤويني، إذ لا أحد لي في هذه المدينة الغبارية إلا شيوخها الثلاث من يرثي لحالي المعقّد، وقد يصبر على صحبة البيت ليلاً ونهارًا.

هل سأقول له بدون مقدمات –وهو الأدرى بالعرف المهيمن على عوالم الأسر– بأن الوالد ملّ بقائي في البيت عازبًا والناس من حوله تدعوه إلى الضغط عليَّ، أم تراني سأذكّره بدوام عزوفي –مع غياب فرح– عن هذا الأمر، ربما أكتفي بأن أطلب منه تحمّلي حتى أرى من أمري ما أرى.

مع الاقتراب من بيت قدّور ازدادت حيرتي، وتواترت إلى أعماقي أسئلة أخرى، لم تزدني إلا تيهًا، فقاطعني بُعيدها بالقول:

- لا تطل التفكير والشرود. من الآن إلى غاية ما تهدأ عاصفة الوالد أنت في بيتك.

علت –كالعادة– استفهامات الخاطر والعين، وجواب قدور محا عنّي كثيرًا من وجل وعبء، وكم زادت راحتي حين قال:

- أنا وحدي في البيت هذه الأيام، لا أهلون يزعجون زيارة الأحباب مثلك.

عاد الصمت من جديد، واستضافنا لثوانٍ، تاركًا لنا خيالاً باحثًا عن خيط لحديث آخر.

لم تمر دقائق حتى وجدت فنجانًا من القهوة تدفئه سحابة من بخارٍ أليفٍ، تصاعدت نحو سماء غرفة الضيوف التي بدت مألوفة، وقد أدفأت كياني وكيان هذا المكان الذي تتسابق فيه نسمات من الألفة والبساطة.

ارتشفت البن، وكأني به أطيب ما تذوقت، جعل مني أستعيد هدوءًا ضاع من يدي، هذه اليد التي رمت بما كانت تحمله من أوراق وبعض الأغراض الخفيفة على صدر تلك الطاولة الوحيدة في الغرفة، احتضنت الطاولة رسائلي المزوجة بالوحشة وغريب الأحاسيس ودهشة الفوبيا.

مضى يوم كاملٌ وأنا بين جدران بيت قدّور، وانتظرت قدومه الذي تأخر، وقد استضفت في غيبته كمهدي شيئًا من غبار الحي.

لم أشعر بكبير وحدة، فقد تعوّدت البقاء على هذه الحال لساعات بل لأيام طويلة، لم يكن يرافقني فيها غير كتاب حب أوقصيدة شعر.

قد يكون قدّور الآن ضمن الرّفاق، حيث الحديث يأخذ مجراه

الانسيابي المعتاد، وسوف لن يكون صعبًا عليه أن يحفظ طلبي بألا يخبرهم عن حالي الآن، وما آل إليه أمري، وقد يصعب عليه إخفاء عيون الحقيقة عنهم، إذ هم يقظون بالفطرة بعيدًا عن غبار المدنية.

بدا لي بيت قدّور، الذي أدخله لأول مرة، غريبًا يمزج بين دعة وحياة، إنه الأوحد ضمن ديار الحي ما يحوز على ضفتين، إذ يطل على شارعين أحدهما قبلة الطريق، المار عبر المدينة، طريقٌ يشقّ المدينة إلى اثنين، كأني به نهر من إسفلت، يعطي الانطباع لمن يدخل المدينة لأول وهلة أن امتداده يعطي المدينة دفعًا حضاريًا، واستمرارًا للشمال على تخوم البادية.



يشق هذا الطريق المعبّد بالإسفلت المتين المدينة إلى نصفين. وعبر سيره يخفف عنها هول الغبار كأنه يحمل رذاذ الساحل، ويشل كالنّهر حركة رذاذ الغبار كما يشل غزو الجراد، لقد جعل منها قلبين في كيان واحد، إذ هو يقّسمها إلى شرقية وغربية، الأغرب أن قدّور يسكن بالجانب الغربي لمدينتي أما أنا وباقي الأصدقاء فإن شمس الصباح تطل علينا قبيل أن تصل إلى أجفان هذا البيت الذي يأوي أحزاني.

افتتح الطريق المعبّد قبيل قرن أويزيد، ولم تغير فيه السلطات إلا الاسم. الطريق القومي رقم واحد، تلك هي صفته ومسماه، ووسط هذا التّاريخ الذي امتد إلى عشريات عديدة، لازلت أشعر أن المدينة برغم تناقضاتها تحفل بالحب والأمل، لست أدري لم دخل الحب مع خطواتي إلى بيت قدور ومعه نسمة الرّبيع.

مرّت ليلة، عشت فيها في دفء بيت قدّور، بعد عشاء لذيذ به كثير من البركة والألفة.

حينما حمل الرّجل إليَّ كرم استضافته في صحن مغطى بقطعة قماش كسيت بالسواد وخيوط حمراء قانية، تشتم منها زكي الكسكسي، وآثار لحم الضأن، التي اعتاد الوالد مقاسمتي إياه في ذيل كل أسبوع.

دخل قدور قائلاً لي:

- لا تغضب إن قلت لك أنني تحدّثت مع والدك.

قبل أن يفر الجواب الممزوج بالانزعاج نحو أذن مضيّفي، لاحظ ارتسام تجهم الوجه وتغير الملامح، واستحضرت حينما تهادى إلى مسمعي لفظ «الوالد» عديد الصور التي كانت تحتشد في ذاكرتي وبها ما بها من مواقف وأحاديث مع الوالدة والوالد، وبدا لي أن الغلبة أمست لصالح الوالد، كأنني حين تركت الدّار –بتفويض منه– فتحت جبهة من الصراع بين الأجيال وبين الأفكار، بين الرفض والقبول، بين العصيان والطاعة العمياء، ولم أجد بما أجيب سي قدّور إلا:

- لماذا فعلت؟

- إنه والدك، عليك أن تأخذ بخاطره.

- ولكن الأمر أكبر مما تتصور.

- أعرف جيدًا ما جرى، سي عبد القادر حكى لي كل شيء.

كأني بجملته الأخيرة قد قتلت تلك الأسرار التي اعتقدت أنني الأوحد من يزخر بها، وكُشف بالنسبة لي غطاء غرفةٍ لأسرار عمّرت لسنوات، «كل شيء» هذه، اختصرت ما كان في أعماقي من

كثير الصراعات الشعورية، وبقايا موروث الطاعة المبثوث في العرف العائلي.

صمتي لسنوات وعزوفي عن إكمال نصف ديني و.. و.. كلها دوافعٌ حرّكت في الوالد شعورًا مخيفًا بأن المرض يتسلل إلى بيته، بأن سقمًا اجتماعيًا بدأ يزحف -مع زحف السنين والغبار- إلى دارنا وما اعتادت من قبل مثل هذا الحال.

لم يكن مسموحًا للآباء والأبناء في مدينتي وفي حيّنا المكسو بغبار السنين والصمت أن يتجادلا عن أمر كأمري، بل لا يجوز حتى الهمس به، إذ عُهد إلى الأجيال معرفة استمرار السلالات عبر الروابط الزوجية بشكل آلي، فطري، وتُرك أمر معرفة التفاصيل ومناقشة أمر الشريك إلى وزارات الدّاخلية في كل بيت وعلى رأسه تلك الأم أو في الحالات الأسوأ تلك البنت البكر.

لم أكن سعيدًا بلقاء قدّور بالوالد، ولا بمفاتحته بالأمر، ولولا معرفتي بطيبة الرجل وبكرمه لذهب بيَ التفكير مذهبًا آخر، لقد فتح لي الرجل بسماحة ولطف بيته لأكثر من أسبوع، لمست خلالها التشابه الغريب بين روائح الوالدة وأنفاس هذا المكان عبر أوانٍ مشابهة لما في البيت والتي تعوّدت على الأكل فيها بشراهة وحنين، وعبر طعم مشابه لمذاق الغداء والعشاء، ولنكهة تكاد تكون ذاتها لتلك القهوة الصباحية، الخضراء المذاق والنسمات.

مرّت أيام، لم أعرف آناءها إلا ثلاثة أماكن، اثنان منها يؤوياني بدلال وواحد منهم مجبر عليه، بالرغم من أنسي به وبجدرانه الأربعة، المزدانة بأوراق بيضاء وأخرى ملونة وبحبر يمزج السواد والأزرق، وكلمات مصفوفة بانتظام وخلود في صفحات نائمة في عديد الكتب المختلفة التجليد واللون والمذهب، أما ما تبقى فهو بيت قدّور الذي بدا أنه سيحفل بأناس غيري، إذ حان ميعاد عودة أهل الرّجل، وأراني مجبر على ترك المكان، الثالث الأبدي بالنسبة لأربعيني مثلي والذي يحمل في طيّاته المزدانة بالعفوية والبساطة الكثير من الذكريات في الصحوة والمنام فهو ركن الشيوخ، ركن الأجيال، إنه ركن يحتفي بي دون أن يطاردني بالسؤال، لم أعهد منه بوحًا لأسراري، ولم يهاجم وحدتي بالسؤال يومًا عدا مرّة واحدة، حين تجرأ على الإفصاح عمّا يختزنه نحوي، جاءتني عباراته المتسائلة، قبيل شهر من ضيافة سي قدّور، تتهادى بخطى المنام قائلاً لي:

- عليك أن تنسى أشجان.

- كيف عرفت بها وباسمها؟

- في مدينتنا ينقل الغبار كل الأسرار.

- لم أعد أحفل بها، قد ضاع العمر وفرّ من يدي.

- لا تكابر، ما زالت آثار الأشجان في عينيك، أنصح بأن تذهب إلى ضفة المدينة الأخرى غير بعيد، وستجد أفراحًا و«فرح».

كانت تلك المرّة الأولى، التي أسمع فيها صوت ذاك الركّن الدافئ، الحامل لسكون الليل ولنور الصبح المترامي على ضفّتي الدنيا.

لم أسمع منه بعدها -ولا قبلها- وخزًا لأحاسيسي ولا يقظة لأشجاني. وكلما ذهبت إليه بصحبة أوبدونها، يتبدّى أمام عيوني المتعبة ذلك الوقار وترتسم سعة الدنيا أمامي، وتتبت على جانبيه أفراحٌ، لا أعرف سرّها بحق؟



عدت إلى مكتبتي التي لم أغادرها قط.

عدت إلى تلك الجدران وقد امتلأت في أعماقي أسئلة عن قدّور وعن سعد وعن محمود، وفي خضم الضياع في لجج الظنون والأفكار ولجت إلى المكتبة رسالة شديدة الإغلاق مربّعة الشكل تحمل اسمي وعنواني. بدا أنها متخمة، خشيت قبيل أن أهم بفتحها أن أفتح جبهة نفسية أخرى أنا في غنى عنها، تناسيت الأمر وبدأت بفتحها، وما كدت أفعل حتى سمعت خطوات رجلين أعرف صوتهما، إنهما سعد ومحمود وهما بكامل أناقتهما، لم أعهد مثل هذه الزيارة المكللة بشيء من الدّعة وبكثير من أناقة الشيوخ، المتوجة رؤوسهم بتيجان الذكريات وخبرة الحياة.

- السلام عليك أيها الشاب.

بدا سعد مع التحية صاحب نفس جديد.

- وعليكم السلام، كيف الحال يا أعمام؟

- الكل بخير.

كان ذلك جواب محمود وبصوت خافت بدا أنه يحاول عبر أناقة مستعارة إخفاء الألم، المصاحب لشحوب الوجه.

ليترك الحديث للشيخ المهيمن على المشهد:

- سوف لن نطيل الحديث ولا الكلام..

لم تطل مدة استغرابي لهذه المباشرة في الحديث، حتى أدركت كنه الأمر بأكمله، حينما أبصرت عبر باب المكتبة الشفاف مرور سي قدّور وبرفقته سيدتان، إحداهن يتوج قدّها البدوي حايكًا أكثر نصاعة من جارتها، وفي كل خطوة تخطوها نضارة العمر وحيوية الشباب.

- عليك أن تذهب إلى والدك، وتسوّي الأمر، إنه في انتظارك.

هكذا بعث سي سعد بإشارة الأمر مستعيرًا نبرة الوالد، وكأني بـ مرادف الطّاعة يلاحقني من جدران البيت إلى كل أحياء المدينة، مرورًا عبر كل ذرة من غبارها الهادئ اليوم.

تواصل الحديث بنسق هادئ، لترحل بي كلمات الشيوخ، المزوجة بتوابل النصح ونفائس التجربة، نحو إغلاق مكتبتي، لا يبدو أن سي قدّور أخبر الوالد فحسب، ففي جعبة الرجلين صفحات مما أختزنُ تجمل بصمته، وبدا لي أن الثنائي يخطط لأمرٍ ما، كيف لا وهما يلحان في تكرار جمال النساء وحاجة البيت والأنفاس إليه.

حملتني الخطوات إلى دار الوالد، دارٌ لم تغادره الأقدام إلا في النزر اليسير من الأيام، أما خواطري فما كانت تعرف به قرارًا، إذ ما فتئت تسبح بي وتغوص معي في عوالم عديدة معظمها أجد

بوابته في نصوص مكتبتي الفقيرة، وجدت الوالدة على مقربة من الباب وهي لم تعد قادرة على إخفاء ذلك البريق الذي استقطبته عيوني مع أول قبلة أهدتها لي بعد عشرة أيام من غياب فنجان قهوتي عن طاولتها الصباحية، بإشارة الأمومة، تقدّمت خطواتي نحو الوالد، وراحت شفتاي تسابق الهواء نحو تاجه المزدان بالسواد المغلّف للحنين والشدّة، كي أمضي عليها بصمة العرفان والانكسار.

رسم الوالد على وجهه، بعد استلامه لتحية الطاعة، شبه ابتسامة قائلاً لي:

- أمك ستحدّثك..

قبل أن أعود إلى الوالدة، لاستجلاء منها ما غمض، وقبل أن تنبز ببنت شفة لاحت في يدي تلك الرسالة، التي لم أشعر بها إلا وأنا في الدّار، أنسانيها الشيخان على ما يبدو، حملتها وأنا بين الظنون، وتشتت الأفكار، وهممت بفتحها لأقرأ ما فيها، ما كدت أفعل حتى اقتربت مني الوالدة وهي تحمل ذلك الغداء الذي تعوّدت مناديله وأوانيه، وذكّرتني رائحته الزّكية بضيافة سي قدّور، أمسى سي قدور رفيق ذاكرتي، كيف لا وحنطة الأم وحسائها تذكراني به، وتاج الوالد يدعوني لاستحضاره رغمًا عنّي، كما أن حديث الرفاق يكاد يخرج من أعماق الصاحب الكريم.

لم يستطع سي سعد ونحن في المكتبة إخفاء شيء عنّي، حين قال:

- أتعلم أن اختيارك العفوي للمبيت عند سي قدور، سيحل كثيرًا مما عانيت؟

أدركت الآن، وأنا أفتح رسالتها، أن الأمر كله منسوج، وإن لعب القدر فيه لعبته الأزلية، كما لعبت معي أحلام أشجان وسافرت إلى الضفة الأخرى، وها أنا الآن وأحلامي في ضفة أخرى على التخوم البدوية لمدينة الغبار، وأراني معها وصلنا إلى المرفأ.

فتحت رسالة الأنثى، وهي مملوءة بشذى الحنين وبجرأة الحب والسّكن. وبدأت بقراءتها:

((لم تكن من عاداتنا، أن نكون صاحبات المبادرة، ولكن هي خطوات الوالدة ما حملتني لذلك، ولا أخفيك أنني عرفتك من حروفك ومن صمتك، ومن توقف الوالد عن الحديث عنك أمامي وهو بصحبتي الوالدة.

لقد قرأت ما كنت قد كتبته في بيتنا، تصفّحت أوراقك ورسائلك وكل ماضيك، قد لا تعرفني، غير أني أعرفك.

حملتُ رسائلك بُعيد أن وطأت أقدامك دارنا لأول مرة، وحملت

معي ما تركت من أسرارك في قلبي وفي خاطري، وتجرأت حينما طلبت منّي والدتي تنظيف الغرفة التي آوتك -مثلما آوتني- أن أقرأ أهم جزء فيك، جزءك الآخر.

كان الوالد يعرفك، وكنت خلاله أعرفك، وأنت سابح في عالم غير عالمنا، سبحت مع أشجان ومع الماضي ومع الأحلام التي تتبدّى أمامك أنت منصرف إلى غيرها، علمت باكرًا بحبك للكتب فأهديتك، ودون أن أذكر لك اسمًا، أنت الآن ملك للمدينة ولي... ولغبارها.

سرت مع الحروف، واستوقفتني تلك البهية الجريئة، ببداوة المدينة والحي:

((قبلت بك زوجًا،

بماضيك بحاضرك،

بأحلامك بكوابيسك)).

أغلقت الرسالة، وخرجت ومن حولي المدينة، صافية بهية لا غبار فيها.

خرجت بعد أن أغلقت المظروف جيدًا، وبعد أن تلاشى الاستغراب عن صاحبتها، وحديثها العذب، كأنني عبر الأسطر

أقرأ أفكار قدّور وأحاسيسه، ووجدتني أترك التفاصيل المنسوجة في عشر صفحات، ولا أحفل إلا بما تبقى من جمل.

البحث عن بدلة أربعينية ليس بالأمر الهين في مدينتي.



بعد ثلاثة أعوام

بعد ثلاثة أعوام تبدّلت المدينة، وتغيّر كثير من أركانها، وطفت على شفاهي نبرة جديدة فيها كثير من اللين وقليل من الاضطراب، أصبح في بيت الوالد أكثر من عائل.

تبدّلت مدينتي وأمست في ربيعها الذي مضت على غياب بهجته سنوات، وازدان جيّها بوافد جديد، إنه سعيد، ولدي.

وُلد سعيد في دار الوالد، التي اتّسعت لي ولـ «فرح»، التي شغلت قلب الوالد والوالدة، وكاد تمسّكهما بها ينسيانهما ابن المدينة وغبارها.

تغيّرت أفنية مدينتي، وبدا أن صيفها الثالث جعلها تتمتّع بموسم مشمس مليء بفيء الشتاء وعذوبة رديفه المزدان برياح ربيعية منعشة، غابت حملات الغبار إلى غير رجعة، عام ثالث يرتسم جماله على الشفاه، والأذهان فيه مليئة بالإبهام وتغريها تساؤلات غياب اللعنة التي تمتطي لحن الغبار النشاز.

ثلاثة أعوام صمتت فيها حبيبات رمال الأسى تلك التي عكّرت فيما مضى صفو وحدتي ومكتبتي، ومعها صمتت الأقدام التي كانت تأخذني إلى ركن الأجيال، لقد ابتعدت خطواتي كثيرًا عن ذلك «المقام»، الذي اختزن آمالي وشيئًا غير هيّن من آلامي، لم

أعد أستطيع الذهاب بُعيد كل مساء إلى أولئك المحبّين، قد أكون معذورًا قبيل عام من الآن، إذ بقي المكان خاليًا من وافديه طوال أربعين يومًا، استطالت إلى حدّ الأربعين سنة، كانت حدادًا على أحد الأركان الثلاثة، يتملّكني الأسى وتتسارع إليّ جذوة الصمت المبحوح كلما هممت بذكر اسمه.

- أين البقية؟

هكذا وبلهفة غير عادية، سألني ساعتها الشيخ سعد.

- البقاء لله.

كانت تلك إجابة الباقي.



إنه الأربعاء، يوم مدلّل من أيام المدينة، إنه يوم السوق الشعبي، أين تقتني قفف الحي فيه خضارها وأجود فاكهتها، لقد كان يوم السوق هذا في أيام خلت يومًا لزيارة الغبار بثوب غاضب، لقد عرف عن السوق كثرة الحلافين وقلة الخيّرين، كان رمزًا لغضب أهل الخير والكرامات أهل النور والصفاء، باختصار كان يوم السوق طعمًا لكثبان من غبار لا تبقي وهي تسبح في الفضاء غير مزيد من حراك الشفاه المغطاة بذيل العمائم وبمقدمات من السباب واللعنات، وجدتني –في هذا الأربعاء الصافية سماؤه– مرافقًا للوالد على غير العادة قبيل الزواج، أمسى أمر الزواج في الدّار على بساطته حدثًا يجعل الوالد يفخر بالمسير برفقتي وعلى كتفه حفيده السّعيد.

حفلت الدّار بما لذ من فاكهتها، ووجدتني أحمل أقدامي التي أمست ثقيلة، كيف لا؟ وثلاثة أعوام أتت أكلها بثلاثين رطل في جسم كان بالأمس القريب في قمة رشاقة الأسى.

وجدتني أتوجه للركن المبتور علّني أسمع جديدًا من الشيخ سعد، والذي لولا وقوفه الوفي لانمحت آثار الركن ومريديه.

وجدتهما واقفين، كأنهما لي منتظرين دون سابق موعد.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

أجاب الشيخ سعد، قبل أن يجدد بشيء من الدعابة:

- يبدو أن الوالد في قمة سعادته مع الحفيد..

- نعم هو كذلك، لو عاد بي الزمن لـ...

وقبل أن أساير دعابة الشيخ سعد، هيمن علينا الصمت وانطلقت بعفوية لا إرادية من العيون تعابير من الأسى حينما استحضرت لفظ «الزمن»... وراحت تترقرق كل عين من تلك التي كانت تحفظ للفقيد ذكرى وهمسة وكثير من صور المحبة، وعشنا لدقائق أنفاسًا مغلقة وزارنا منذ أكثر من ثلاث سنوات ريح تتبدّى فيها بقايا من غبار ليس بآدمي.

تنهّد الشيخ سعد طويلاً، مواصلاً الحديث وعينه على ما تبقى من العقد:

- غادرنا على على حين غرّة.

- لله ما أعطى وله ما أخذ.

- لولا المرض...

- عد إلى رشدك يا رجل، إنه أمر الله..

- أي رشد سيبقى لعجوز مثلي؟

- كلنا في عمر واحد، لا داعي للشكوى.

تدخلت بعد أن سبحت وأحاديثهم إلى الماضي القريب:

- الموت والحياة لا يمتّان للعمر بصلة..

- صدقت، ولكن تلك الغرفة هي ما حفرت في ذاكرتي عذاباته وعذاباتنا.

- نعم، لقد صمد كثيرًا، ولكن من لم يمت بالدّاء مات بغيره... أمسى سيف المستشفى قاتلاً.

كانت هذه جملتي التي ودّعت على أثرها جناحي المجلس.

أخذتني الأقدام مجددًا إلى البيت، ومع تسارع الخطى واقتراب الشمس من المغيب، سمعت صراخ «فرح» وهي تبعث إلى النافذة بنجدتها.

لم يسعفني الوقت عبر هذه الصرخات على كثرة التفكير غير الولوج سريعًا ومعرفة ما الأمر.

تحلّقت كل من الوالدة و«فرح» وباقي من في الدّار حول سعيد، والدماء مضرجة في رأسه وعلى جبينه، حملتُ جسد الطفولة نحو مستوصف الحي وسط حلقة من غبار ومن عيونٍ كانت قد غابت

عن المشهد الإنساني لفترة ليست بالقصيرة، وكأن بغبار الحي مطيّة لأجساد وعيون –فقيرة في أحاسيسها وفي مداركها– حفلت يومًا ما بوحدتي وشممت منها كثيرًا من أسئلة البغض ونظرات الحقد.

مرّ الليل مثقلاً مرهقًا ومليئًا بالعبء والتّعب، ولم أكد أستشعر لذة غيبوبته المؤقتة في ساعاته القليلة.

أما الصبح الذي بدا لي مختلفًا، فقد رمى بي باكرًا نحو يقظة جاءت دون التنعم بالنوم، أتعبني سعيد، عبر صراخ السّقم، وفي ساعات الليل الأولى جعلتنا آلامه نسهر بمستشفى المدينة، القابع كالجبل وحده منتظرًا الزائرين وهم يصلون تباعًا إلى قمّته متعبين من دائهم.

ولكن مضت الساعات على طولها بخطى الطمأنينة، وعدت بالفتى وقد زال الألم، غير أني شددت إلى صبي بمثل سنه وقد أعياه المرض، وحملتني شفقتي لذلك المشهد وشعور الأبوة المتلهف على ولدي أن أزوره في الليلة الموالية.

أخذتني الخطى إلى البيت، ومعها استشعرت بضيق وقلق.

مع تقدّمي من باب البيت وعبر وخزة معهودة، أدركت أن جناحًا عرف طريقه إلى فضاءات الغياب.

توالت أحزان الرّكن برحيل نواة المجموعة، رحل سعد إلى غير عودة.



رحل فرع آخر من شجرة الحياة، ورحلت معه نوستالجيا إلى أيام لن تعود، رحل الثاني من الثلاثة، والبكر وسطهم، رحل كواسطة العقد من مرثية ابن الرومي.

لم يعد للحديث مكان، بل مع من سيكون هناك حديث، لقد انتقلت وكأنني إلى غير هدى نحو ركن الأجيال المبتور من أصوات من أُبيدوا، ووجدته مثلي ساكنًا لا حياة فيه غير أشلاء من بقايا حركات على الرمل لعصًا كانت هنا ذات يوم.

تجرأت ورحت بُعيد أيام العزاء نحو بيت سعد، حاولت تخفيف آلام الرّحيل عمّن بقي على وجه هذا الحي، ورغم إبهام الدّاء وغرابة الاستقبال من أهل الفقيد، لم يكن من الصعب عليّ إدراك سرّ الوفاة ممن يبقى من أفنان مجلسنا.

- لم يتحمل قلبه تلك الصدمة؟

هكذا لخّص سي قدور كل المشهد، والمصير.



زرت الفتى، حاملاً في يدي -اللتان كانتا ترتشفان من شراب المداد وبخار الأوراق البيضاء- له ولولدي شيئًا من الفاكهة التي لا تبدو عليها آثار الغبار.

تقدّمت إلى غرفته وكأن النسيم الذي أهدته نافذة وحيدة في قبلة المكان يهدي بسلام قديم، ومع أول طرقة هادئة للباب قابلت عيونًا، استحضرت في لمح البصر من خلالها حقبة لا تحصي تعدادًا وزمنًا، أبصرت وجهًا شاحبًا تتوّجه عيون لا زالت تحفظ أنس الصبا وبعضًا من مرارة السنين. وجهٌ بدا لي مألوفًا ولكن ذاكرتي على علّتها وآثار غبار الحي والمدينة لم تعهد أن تخطئ تسديدة التذكّر في مرمى الأيام.

لم أطل الوقوف، إذ فاجأتني هذه الخطوات، وهي تختصر الموقف بالقول:

- شكرًا لك على الفواكه، أنا أمه.

لم يكن بمقدوري وأنا بين مزيج التفحص للوجه وللذكريات أن أبوح بكلمة الشكر.

هززت رأسي عساني أترجم شيئًا من واجب الشكر وكثيرًا من فرط الدهشة.



غادرت المستشفى، الذي لم يعد يذكّرني بالراحلين فحسب، بل خدش في قلبي سطرًا من ألم محاولاً استحضار حقبة الشباب تلك، وأنس ذاك التصابي.

عادت بي زيارتي لفتاي وفتاها، إلى أكثر من عقدين من الزمن، عادت «أشجان» بأشجانها.

كان وجه «أشجان» غريبًا وعبوسًا، لا أدري سرّ غرابته، وإن كان في بعض العبوس الحيرة على الولد.

فقد ذلك القدّ سرّه الكامن في عنفوان الشباب، وراح ذلك الظهر نحو أعباء الحياة ليستعير منها عصيّ الأعمار علّه يستطيع أن يتوكأ عليها، كيّ تؤجل عنه ضربة قد تقصمه إلى الأبد، عصيّ لا تشبه عصا فقيد الرّكن والإباء، عصا الشيخ سعد مختلفة عن غيرها، في ملمسها وفي وحدتها وفي الكثير من أسرارها.

انطفأ انشغالي عن سعيد، بعدما رأيت علّة فلذة كبد أشجان، لم أعد أعرف ما جرى لي وأنا أسمع كلماتها التي تتالت كما تتوالى أيام مفكرة الأيام في ذاكرتي التي تآكلت فيما مضى، بُعيد غيابها.

تركت البيت مجددًا وأنا أقلّب بحنين وبذكرى مأسورة في كفّ القدر ماضيّ وماضي «أشجان» ساعات عديدة، واستجمعت مزيجًا من استحضار شطر الشباب الغض، ورأفة لحال ثمرة حياتها.

وأنا أنظر إلى عينيها وهي تحدّثني، لم أعد بتلك الدّرجة من الفتنة التي ما فتأت تغريني بالإبحار دون مجداف التريّث، في عوالمهما الهاربة بي إلى ما كان في نفسي أحلامًا محشوّة بلذيذ الحكي كأحلام شهريار، بدا لي توقي إلى شهرزاد طيفًا من أطياف بغداد التي محا عنها هولاكو كل جميل، وخدش أسطر الحياة كأنه مشرط يفقد صفحات ألف ليلة وليلة لذيذ السرد والبلاغة، راحت «أشجان» بما كانت تملك من بلاغة لتحدّثني عن ما عاشته في أرض الغربة.



لم أعِ من أين بالضبط بدأ الحديث، كل ما أدركه أن مكتبتي التي أمست غنية الرفوف والرّصيد، غابت عني مخاوفي عيون من كانوا في الحي يرصدون دبيب النمل، لأن الموت لم يقصّر مع كثير منها، وكأن حصاد السنوات الثلاثة قلب كيان الحي والمدينة، وقلب كياني وكيان من يحيطون بي.

تحدّثت معي «أشجان»، عن سفرها ولم تنس وهي تحاول إذابة ما تبقى في تكوينها من جليد فرنسا أن تستحضر شيئًا من أيام الصبا تلك التي وثقتها صورة شمسية جمعتنا يومًا ما.

إن أشدّ ما لفتني في حديثها هو ذلك التبرم من البرد والبَرَد والشتاء الباريسي العسير، لكأني بها ترنو إلى دفء المدينة والحي، لم تكن تدرك في غيبة السفر أن الحي استعاض في شتائه عن رذاذ المطر بالغبار.

تغيرت نبرات صوتها، وفي أحاديثها ألم – كنت أشعره فيما مضى– وحيرة تراكمت على كيانها بفعل قسوة ظروفها مع زوجها، الذي أخذها إلى فرنسا كغنيمة حرب لا أكثر، ولكن غنيمة العشرين آنذاك، تخبّطت في وحل النكران وأمست كإحدى اكسسوارات البيت العتيقة لا تحفظ إلا ذكريات البلد.

سألتها في غمرة مقدّمتها النوستالجية:

- كيف بدأ الأمر؟

- لقد تركت وحيدة مع مرض عضال في إحدى ضواحي باريس.

- والزوج؟

- تقصد آلة عدّ النقود والزوجات؟

كانت إجابة عيوني كفيلة بأن تدفعها للاستطراد:

- لقد عاش مع كيان آخر..

- ولكن ما الدّاعي لأن تعودي وأنت بهذه الأنفاس المحطّمة؟

- لقد تغيّر كل شيء منذ سنتين فقط.



لم تتغير على ما يبدو حياة أشجان فحسب، بل أراني بدأت بتذوق شيء يسير من هذا الكأس، عدت إلى دار الوالد، وإذ بعيون الوالدة وهي تفتح الباب تذكّرني بتلك الليلة، التي كان مطلعها الجملة المحفورة في كياني: - يقول والدك: عليك أن تغادر البيت!

ساعتها، رافقت الجملة كثير من بحّات التأسي من شفاه الوالدة الوادعة.

على جنب أخذتني، وأردفت بالقول:

- من هي المرأة التي تلاحقك في المكتبة هذه الأيام؟

- إنها زبون يا أمي.

- وهل يبقى الزبون لساعات..

- وما الخطأ في ذلك؟

- كيف؟.. إنها امرأة..

وأضافت محاولة مزج ثورة غضبها بهمس الحديث:

- إنك زوج.

لخّصت الأم في لومها لي وحديثها الموسوم بفروسية التعفّف كل ما ترغب في كلمتها الأخيرة، ولم يكن بمقدوري أن أشرح لها

–وللوالد – أن الأمر مختلف تمامًا، لم يكن بمقدوري أن أقول لها بأنني حين الحديث لـ «أشجان»، فإنني أصوم عن الغبار الآدمي الذي وقوده الرغبة الجامحة، ولم يكن بوسعي أبدًا أن ألخص للوالد ذلك المشهد، إذ كيف لي إقناعها بأنني وأنا أحدث ذلك الكيان المحطم لتلك المرأة والذي لم يعد يذكرني بالحياة غير عيونها التائهة، أستحضر حقبتي الزاهية، أستحضر فردوسي المفقود، إنني وأنا على هذه الحال، تمامًا ككل عربي يتوق إلى الأندلس دون هاجس إيزابيلا وفيرديناند، وإلى بغداد دون ظل العلقمي والطوسي.

أضحت مأساة أشجان مزدوجة، وأنساني حديثها فترات من الوحدة قد خلت.



قالت أشجان والحزن يجرّ عباراتها بساعدٍ من الأسى:

- حملني زوجي وأحلامي إلى باريس..

قبل أن تواصل الحكي، فضحتها بحة كانت أقرب إلى ذكرياتي معها أيام الشتاء التي لم تدفئنا فيها فيما مضى إلا دقائق المسير التي تقودنا من ديارنا بالحي نحو الدراسة بآخر المدينة:

- كان أول مكان وطأته بيت فخم في ضاحية راقية، ذكرتني إحدى ثانوياتها بالحي والمدينة.

- أمازلت تذكرين؟

- كيف أنسى الثانوية؟

- لقد مضى زمن طويل، بدا لي أن باريس طوته نهائيًا..

- لا بالتأكيد.

- الكل هنا في هذه المدينة في أحيائها، يحلم بباريس.

- لست مثل أي واحد منكم، لم أكن أحلم بها، لقد كنت وسطها ولكن..

- ولكن ماذا؟ باريس تهدي إليهم الحلم... يحلموا لينسوا، على ما يبدو، غبار الحي والمدينة.

- لا تظن أنني كنت في جنة، لم تك باريس مدينة الملائكة.

- لم؟

كان سؤالي فاتحة لصفحة أخرى من معاناة المرأة، إذ وبعد سنين من زواجها، وبعد اتفاق الزوجين على البقاء تحت سقف الزوجية دون أبناء، تقدّم بهما العمر، وللبعل أكثر، ما كان منهما إلا أن تراجعا مرغمين عن اتفاق الليلة الأولى، وبدأت رحلة البحث عن خليفة لهما، وراحت الليالي تغرف من الطبيعة غريزة البقاء والخصب، وتوالت ليالي باريس بما تجود به من ألحان وعطور، وانقضت ساعات فجرها على الرغبة ذاتها، وانطفأت مع أفول كل ليلة كل نيران اللوعة والحياة وازدادت رغبة الوريث وانتظاره اشتعالاً.

عاش الزوجان فترة أشبه بشهر العسل، ثم تلتها مرحلة أخرى أين كان حديثهما أكثر جدية، فتطورت الأمور مع تتابع الشهور من الدّعة والتصابي إلى الاضطراب والتّرقب وشيء عسير من هالة الانتظار. وكانت مرحلة الحسم في الأخير أين زارا الطبيب.

صمت كل شيء بعد إجابة المختص لسؤال حيرتهما:

- ٩٠ بالمائة لن تستطيعا الإنجاب.

بعث الطبيب مع هذا الترجيح، نظرة فيها الشطر الأهم من المسئولية إلى أشجان وأخرى أقل منها إلى الزوج، وختم الحديث وهو يهم بكتابة مشروع للعلاج:

- لم يعد أمر علاج هذا النوع من العقم عسيرًا كما كان في السابق.

كانت هذه الزيارة فصلاً مختلفًا ومنعطفًا مبهمًا في علاقتها، هكذا انطلقت رحلة البحث عن الخليفة، وسرى إلى أشجان يأسٌ ممزوج بتذكّر مقولة الطبيب وبنظرات الزوج الستّيني، الذي كان يذكرني كلما جاءت أشجان على استحضاره بمن تبقّى من أصحاب ركن الأجيال، والذي أمسى صهرًا وصديقًا.



لاحقتني الأم من جديد، وكأنها أمست الأحرص على انتظاري عند عتبة الباب وليست «فرح»، «فرح» التي غابت عن مشهدي اليومي وهي كلما حادثتني أشارت بسعيد وشغف الوالد بعيونه ونظراته.

لـ «فرح» وأنفاسها المتبولة بدعة البادية روحًا مختلفة، ومسك خاص تمتزج فيه نقاء باديتي التي كانت فيما مضى بعيدة عن تخوم المدينة، ووداعة ليال الصيف المتلألئة بصفاء وغنج، لها هدوء نادر يتوّجه رصيد إنساني ولغوي ندر وجوده في هذه المدينة وحيّها المولع بصور السينما الشرقية المرتبطة بالصيت والكتابة.

لخّصت الأم ثورتها الثانية وهي تدرك قلة حيلتي وعسر حالي، بجملتها المعروفة:

- أهل الحي يبصرون لوالدك بعين الريبة.
- أهل الحي؟ لماذا؟
- ألا تدرك أنك تجاوزت حدودك كزوج، أتعتقد أن والدك وصهرك عاجزان عن توقيفك عند حدّك؟ ماذا جرى لك حتى تواعد امرأة لا دين لها ولا ذمة؟ وأمام الناس؟!

لم يكن بمقدوري أن أجادل الوالدة هذه المرة، ودون أن أدرك

ماذا جرى بالفعل، رحت أصيح عليها، وبمحاذاتها نصفي الآخر الماكث في الدّار بصمت، بكل ما أوتيت من صوت، وانفلتت مني عبارات من السخط والسب وما حوته ذاكرتي الميتة من بذاءات القول لها ولحامل لواء الأسرة.

وختمت وأنا وسط سكرة الغضب القول:

- لست في سن الطفولة حتى أسمع أمر القيام والقعود، إلى الجحيم أيتها الأسرة، وإلى الجحيم زواج كاذب وأسرة من ورق..

خرجت وتركت العقل على بوابة البيت، وتأبطني الشر والعزة بالإثم، ورحت بخطى الكبرياء الزائف والغضب الطارئ نحو ركن الأجيال وكأنني أسابق ما حولي من هواء بدا هادئًا وسط غيم خفيف يعلو الحي، وكم شعرت بالاضطراب والدهشة أن غاب الغبار عن مشهد سكرة الغضب.

ما إن وصلت إلى حضرة المكان حتى تلبد من حولي المكان ولاح ذاك الرذاذ الغباري الغاضب وأمسى المقام محاطًا بكومة خليط من غبار وحصى ميليمترية، ورأيتني كأن شبحًا على تخوم المكان يبعث بي خارجه.

لم أطل الوقوف بمحاذاة ما كان لي فيما مضى ملجأ وسكنى، كأن لعنة الوالدة والشيوخ ومعهم «فرح» جذوة غضب المكان من هذا الأربعيني التائه، لم أجد إلا أن أعود إلى مكتبتي التي وجدت على مقربتها نسخة من مفاتيح بابها مرمية على الأرض وأعلاه القفل منزوعًا من مكانه، وقد عوّضه للتو قفل آخر.

لم أجد أين المفر؟ وأدركت لأول مرة أنني غريب، وأن هذا الطول والعرض وهذه الأنفاس التي تخرج من هذا الصدر المأزوم لن يجدوا مكانًا يأويهم، أبصرت من حولي عمن أعرف فلم تهتد ذاكرتي إلا إلى الوافدة الجديدة، الثقيلة الظل أشجان.

بحثت في الحي على «أشجان» ورحت أتبع خطاها، ولكنها غادرت المشهد على ما يبدو، تركتني وغباري وحيدين، جاءت كالحلم وأمست كابوسًا برحيلها الغريب.

أين فرح؟ وأين أشجان؟



صدقت العرب، المصائب لا تأتي فرادى.

أحيت الساعات المتلاحقة ما كان مختزنًا على بعد أمتار إلى السماء.

أحيا الله غبار المدينة وغزا أركان أحيائها ومع كل لفحة ريح، أعود إلى رشدي وأنا أدرك بأم «العين» والعقل أن: أشجان رحلت وعلى كتفها الدّاء والذكريات.

وقد غادرتني «فرح» وعلى كتفها «سعيد» وسعادتي.

لقد غادرتني الدّيار إلى غير رجعة وعلى كتفها والدة باكية ووالد باح أمام الملأ أنّ ليس له ولد باسم الأسرة (باسمي)، قالها في وسط مسجد الحي، ومعه الكبرياء والأسى ممزوجين بخلطة بشرية غريبة:

- ليس مني ولست منه، أنا منه براء.

لم أجد حتى ركنًا أتكئ عليه، عدت إلى عزوبيتي وإلى ضياع العمر.

صاحبني غبار الحي إلى تيه العمر، إلى أين المسير؟

يبدو أنني الآن فقط أدركت سرّ الشيوخ، أولئك الثلاثة الغائبين، وقولتهم بنفس واحد:

- إياك وغربة النفس، لا تظن أن الزواج وأنت في هذا العمر مرفأ النجاة، النجاة هي النسيان.

وها أنا الوحيد الذي خرج باحثًا عن فرحه وأشجانه...

انتهى

الفهرس   الصفحة

الأهداء:.. ٥

المشهد الأخير:.. ٧

المشهد الاول:.. ٩

ركن الاجيال:.. ٩٣

بعد ثلاث أعوام:.. ١٠٩



أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يرسم نص "غبار المدينة" بحبر من السرد والحوار
رحلة في فضاءات الماضي على أعتاب الحي والمدينة.
هي سفر شاب أربعيني بخطوات من شك وريبة وأمل في
يوميات تطغى عليها الأبعاد النفسية، رحلة شابٍ مع شيوخ
الحي عبر استحضارٌ للزمن وللتجربة ولكثير من
وخزات الحب المنسية.
مع الغبار تسافر الأحزان في سماء الحي، ومع المدينة
تطل الصراعات وتتكشّف عوالم التصوف
والدروشة وكثير من حكايات الواقع الأليم.
حديث الأصدقاء الأربع إطلالة على العالم عبر أحاديث
الشغف والذكريات والألم يختزل الحي بأركانه
المتوهمة صراعات وحكايا وشيم.

تصميم غلاف / ريم السخاوي


ISBN 9789773994044

